٦٢١
ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وستمائة

ذكر عود طائفة من التتر إلى الرَّيّ وهَمَذان وغيرهما

أوّل هذه السنة وصل طائفة من التتر من عند ملكهم جِنْكِزْخان، وهؤلاء غير الطائفة الغربيّة التي ذكرنا أخبارها قبل وصول هؤلاء الرَّيّ؛ وكان من سلِم من أهلها قد عادوا إليها وعمّروها، [فلم يشعروا] بالتّتر إلاّ وقد وصلوا إليهم، فلم يمتنعوا عنهم، فوضعوا في أهلها السيف وقتلوهم كيف شاؤوا، ونهبوا البلد وخرّبوه، وساروا إلى ساوة ففعلوا بها كذلك، ثمّ إلى قُمّ وقاشان، وكانتا قد سلِمتا من التتّر أوّلاً، فإنّهم لم يقربوهما، ولا أصاب أهلهما[1] أذًى، فأتاهما هؤلاء وملكوهما، وقتلوا أهلهما، وخرّبوهما، وألحقوهما بغيرهما من البلاد الخراب.

ثمّ ساروا في البلاد يخرّبون ويقتلون وينهبون، ثمّ قصدوا هَمَذان، وكان قد اجتمع بها كثير ممّن سلم من أهلها، فأبادوهم قتلاً وأسراً ونهباً، وخرّبوا البلد.

وكانوا لمّا وصلوا إلى الرَّيّ رأوا بها عسكراً كثيراً من الخُوارزميّة، فكبسوهم وقتلوا منهم، وانهزم الباقون إلى أذْرَبِيجان، فنزلوا بأطرافها، فلم يشعروا إلاّ والتّتر أيضاً قد كبسوهم ووضعوا السيف فيهم، فولّوا منهزمين، فوصل طائفة منهم إلى تِبريز[2]، وأرسلوا إلى صاحبها أوزبك بن البهلوان يقولون: إن كنتَ موافقنا فسلّم إلينا مَن عندك من الخُوارزميّة، وإلاّ فعرّفنا أنّك غير موافِقٍ لنا، ولا في طاعتنا؛ فعمد إلى مَن عنده من الخوارزميّة فقتل بعضهم وأسر بعضهم، وحمل الأسرى والرؤوس إلى التّتر، وأنفذ معها من الأموال والثّياب والدّوابّ شيئاً كثيراً، فعادوا عن بلاده نحو

---

(١) في الأوربية: «أهلها».

(٢) في (ب): «تبريز وتفرق الباقون ووصل التتر إلى قرب تبريز». وفي (تاريخ الخميس ٢/ ٤١٢) تصحّفت إلى: «تورين».

خُراسان، فعلوا هذا وليسوا في كثرة؛ كانوا نحو ثلاثة آلاف فارس، وكان الخُوارزميّة الذين انهزموا منهم نحو ستّة آلاف راجل، وعسكر أوزبك أكثر من الجميع، ومع هذا فلم يحدّث نفسه ولا الخوارزميّة بالامتناع منهم[1].

نسأل الله أن ييسّر للإسلام والمسلمين مَن يقوم بنُصرتهم، فقد دُفعوا إلى أمر عظيم من قتل النفوس، ونهب الأموال، واسترقاق الأولاد، وسبي الحريم وقتلهنّ، وتخريب البلاد.

ذكر مُلك غياث الدين بلاد فارس

قد ذكرنا أنّ غياث الدّين بن خُوارزم شاه محمّد كان بالرَّيّ، وله معها أصفهان وهَمَذان وما بينهما من البلاد، وله أيضاً بلاد كَرمان، فلمّا هلك أبوه، كما ذكرناه، وصل التّتر إلى بلاده، وامتنع بأصفهان، وحصره التّتر فيها فلم يقدروا عليها، فلمّا فارق التّتر بلاده، وساروا إلى بلاد قفجاق، عاد ملك البلاد وعمر ما أمكنه منها، وأقام بها إلى أواخر سنة عشرين وستّمائة، وجرى له ما ذكرناه.

ففي آخر سنة عشرين وستّمائة سار إلى بلاد فارس فلم يشعر صاحبها، وهو أتابك سعد بن دكلا، إلاّ وقد وصل غياث الدّين إلى أطراف بلاده، فلم يتمكّن من الامتناع، فقصد قلعة إصطَخْر فاحتمى بها، وسار غياث الدّين إلى مدينة شِيراز، وهي كرسيّ مملكة فارس، وأكبرها وأعظمها، فملكها بغير تعب أوّل سنة إحدى وعشرين وستّمائة، وبقي غياث الدّين بها، واستولى على أكثر البلاد، ولم يبق بيد سعد إلاّ الحصون المنيعة.

فلمّا طال الأمر على سعد صالح غياث الدّين على أن يكون لسعد من البلاد قسم اتّفقوا عليه، ولغياث الدّين الباقي، وأقام غياث الدّين بشِيراز، وازداد إقامةً وعزماً على ذلك لمّا سمع أنّ التّتر قد عادوا إلى الرَّيّ والبلاد التي له وخرّبوها[2].

---

(١) الخبر في: المختصر في أخبار البشر ٣/١٣٣، والمختار من تاريخ ابن الجزري ١١٨، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٢١هـ.) ص ٥، ٦، وتاريخ ابن الوردي ٢/١٤٥، والبداية والنهاية ١٣/١٠٣، وتاريخ الخميس ٢/٤١٢، والسلوك ج ١، ق ١/٢١٥، وتاريخ ابن سباط (بتحقيقنا) ١/٢٨٣.

(٢) خبر غياث الدين في: مفرّج الكروب ٤/١٣٦، والمختصر في أخبار البشر ٣/١٣٤، والمختار من تاريخ ابن الجزري ١١٨، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٢١هـ.) ص ٦، وتاريخ ابن الوردي ٢/١٤٥، والبداية والنهاية ١٣/١٠٣، ١٠٤، والعسجد المسبوك ٢/٣٩٩، وتاريخ الخميس ٢/٤٠٢.

ذكر عصيان شهاب الدين غازي على أخيه
الملك الأشرف وأخذ خِلاط منه

كان الملك الأشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيّوب قد أقطع أخاه شهاب الدّين غازي مدينة خِلاط وجميع أعمال أرمينية، وأضاف إليها ميّافارقين وحَاني وجبل جُور، ولم يقنع بذلك حتّى جعله وليَّ عهده في البلاد التي له جميعها، وحلّف له جميع النّواب والعساكر في البلاد.

فلمّا سلّم إليه أرمينية سار إليها، كما ذكرناه، وأقام بها إلى آخر سنة عشرين وستّمائة، فأظهر مغاضبة أخيه الملك الأشرف، والتّجنّي عليه والعصيان، والخروج عن طاعته، فراسله الأشرف يستميله ويعاتبه على ما فعل، فلم يرعَوِ، ولا ترك ما هو عليه، بل أصرّ على ذلك، واتّفق هو وأخوه المعظّم عيسى، صاحب دمشق، ومظفّر الدّين بن زين الدّين، صاحب إربل، على الخلاف للأشرف، والاجتماع على محاربته، وأظهروا ذلك.

وعلم الأشرف فأرسل إلى أخيه الكامل بمصر يُعرّفه ذلك، وكانا متّفقين، وطلب منه نجدة، فجهّز العساكر وأرسل إلى أخيه، صاحب دمشق، يقول له: إن تحرّكْتَ من بلدك سرتُ إليه وأخذتُه؛ وكان قد سار نحو ديار الجزيرة للميعاد الذي بينهم، فلمّا وصلت إليه رسالة أخيه، وسمع بتجهيز العساكر، عاد إلى دمشق.

وأمّا صاحب إربل فإنّه جمع العساكر وسار إلى الموصِل، فكان منه ما نذكره إن شاء الله.

وأما الأشرف فإنّه لمّا تيقّن عصيان أخيه جمع العساكر من الشام، والجزيرة، والموصل، وسار إلى خِلاط، فلمّا قرب منها خافه أخوه غازي، ولم يكن له قوّة على أن يلقاه محارباً، ففرّق عسكره في البلاد ليحصّنها، وانتظر أخوه صاحب دمشق أن يسيّر صاحب إربل إلى ما يجاوره من الموصل وسِنجار، وأن يسيّر أخوه إلى بلاد الأشرف عند الفرات[1]: الرَّقّة وحَرّان وغيرهما، فيضطّر الأشرف حينئذٍ إلى العَود عن خِلاط.

فسار الأشرف إليه، وقصد خِلاط، وكان أهلها يريدونه، ويختارون دولته لحسن

---

(١) في الأوربية: «الفراة».

سيرته، كانت فيهم، وسوء سيرة غازي، فلمّا حصرها سلّمها أهلها إليه يوم الاثنَيْن ثاني عشر جُمادى الآخرة، وبقي غازي في القلعة ممتنعاً، فلمّا جنّه اللّيل نزل إلى أخيه معتذراً ومتنصّلاً، فعاتبه الأشرف وأبقى عليه ولم يعاقبه على فعله، لكن أخذ البلاد منه وأبقى عليه ميّافارقين(١).

ذكر حصار صاحب إربل الموصل

قد ذكرنا اتّفاق مظفّر الدّين كُوكُبري بن زين الدّين عليّ، صاحب إرْبل، وشهاب الدّين غازي، صاحب خِلاط، والمعظّم عيسى، صاحب دمشق، على قصد بلاد الملك الأشرف؛ فأمّا صاحب دمشق فإنّه سار عنها مراحل يسيرة وعاد إليها لأنّ أخاه صاحب مصر أرسل إليه يتهدّده إن سار عن دمشق أنّه يقصدها ويحصرها، فعاد.

وأمّا غازي فإنّه استُحصِر في خِلاط، وأُخذت منه كما ذكرناه.

وأمّا صاحب إرْبل فإنّه جمع عسكره وسار إلى بلد الموصل وحصرها ونازلها يوم الثلاثاء ثالث عشر جُمادى الآخرة، ظنّاً منه أنّ الملك الأشرف إذا سمع بنزوله عليها رحل عن خِلاط، ويخرج غازي في طلبه، فتتخبّط أحواله، وتقوى نفس صاحب دمشق على المجيء إليهم، فلمّا نازل الموصِل كان صاحبها بدر الدّين لؤلؤ قد أحكم أمورها من استخدام الجُند على الأسوار، وإظهار آلة الحصار، وإخراج الذّخائر.

وإنّما قوي طمع صاحب إربل على حصر الموصِل لأنّ أكثر عسكرها كان قد سار إلى الملك الأشرف إلى خِلاط وقد قلّ العسكر فيها، وكان الغلاء شديداً في البلاد جميعها، والسعر في الموصل كلّ ثلاثة مكاكيك بدينار، فلهذا السبب أقدم على حصرها؛ فلمّا نزل عليها أقام عشرة أيّام، ثمّ رحل عنها يوم الجمعة لتسعٍ بقين من جُمادى الآخرة.

وكان سبب رحيله أنّه رأى امتناع البلد عليه، وكثرة مَن فيه، وعندهم من الذخائر ما يكفيهم الزمان الكثير، ووصل إليه خبر الملك الأشرف أنّه ملك خِلاط، فانفسخ عليه كلّ ما كان يُؤمّله من صاحبها ومن دمشق، وبقي وحده متلبّساً بالأمر، فلمّا وصلت الأخبار إليه بذلك سُقط في يده، ورأى أنّه قد أخطأ الصواب، فرحل

---

(١) الخبر في: ذيل الروضتين ١٤٢، ومفرّج الكروب ٤/١٣٨، ١٣٩، وزبدة الحلب ٣/١٩٥، ١٩٦، والمختصر في أخبار البشر ٣/١٣٤، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٢١هـ.) ص ٥، وسير أعلام النبلاء ٢٢/٢٤١، والبداية والنهاية ١٣/١٠٤، والعسجد المسبوك ٢/٣٩٩.

عائداً إلى بلده، وأقام على [الزّاب]؛ ومدّة مقامه على الموصل لم يقاتلها، إنّما كان في بعض الأوقات يجيء بعض اليَزَك الذين له يقاتلون البلد، فيخرج إليهم بعض الفُرسان، وبعض الرجّالة، فيجري بينهم قتال ليس بالكثير ثمّ يتفرّقون، وترجع كلّ طائفة إلى صاحبها[1].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، أوّل آب، جاء ببغداد مطر برعد وبرق، وجرت المياه بباب البصرة والحربيّة، وكذلك بالمُحَوّل، بحيث إنّ الناس كانوا يخوضون في الماء والوحل بالمُحَوّل[2].

وفيها سار صاحب المخزن إلى بعقوبا في ذي القعدة، فعسف أهلها، فنُقل إليه عن إنسان منها أنّه يسبّه، فأحضره وأمر بمعاقبته، وقال له: لِمَ تسبّني؟ فقال له: أنتم تسبّون أبا بكر وعمر لأجل أخذهما فَدَك، وهي عشر نخلات لفاطمة، عليها السّلام، وأنتم تأخذون منّي ألف نخلة ولا أتكلّم؟ فعفا عنه[3].

وفيها وقعت فتنة بواسط بين السُّنّة والشيعة على جاري عادتهم[4].

وفيها قلّت الأمطار في البلاد، فلم يجيء منها شيء إلى شُباط[5]، ثمّ إنّها كانت تجيء في الأوقات المتفرّقة مجيئاً قريباً لا يحصل منه الرّي للزرع، فجاءت الغلاّت قليلة، ثمّ خرج عليها الجراد، ولم يكن في الأرض من النبات ما يشتغل[6] به عنها، فأكلها إلاّ القليل، وكان كثيراً خارجاً عن الحدّ، فغلت الأسعار في العراق، والموصِل، وسائر ديار الجزيرة، وديار بكر، وغيرها، وقلّت الأقوات، إلاّ أنّ أكثر الغلاء كان بالموصِل وديار الجزيرة[7].

---

(١) ذيل الروضتين ١٤٢، المختار من تاريخ ابن الجزري ١١٧، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٢١هـ.) ص ٥، سير أعلام النبلاء ٢٢/٢٤١.

(٢) العسجد المسبوك ٢/ ٤٠٠.

(٣) ذيل الروضتين ١٤٢، العسجد المسبوك ٢/ ٣٩٩، ٤٠٠.

(٤) العسجد المسبوك ٢/ ٤٠٠.

(٥) في طبعة صادر ١٢/ ٤٢٤ «سباط» بالسين المهملة.

(٦) في الأوربية: «يشتمل».

(٧) العسجد المسبوك ٢/ ٤٠٠.

٦٢٢

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وستمائة

ذكر حصر الكُرج مدينة كَنْجَة

في هذه السنة سارت الكُرج في جموعها إلى مدينة كَنْجَةَ من بلاد أرّان قصداً لحصرها، واعتدّوا لها بما أمكنهم من القوة لأنّ أهل كَنْجَة كثير عددهم، قويّة شوكتهم، وعندهم شجاعة كثيرة من طول ممارستهم للحرب مع الكُرج، فلمّا وصلوا إليها ونازلوها قاتلوا أهلها، عدّة أيّام، من وراء السور، لم يظهر من أهلها أحد، ثمّ في بعض الأيّام خرج أهل كَنْجَة ومَن عندهم من العسكر من البلد، وقاتلوا الكُرج بظاهر البلد أشدّ قتال وأعظمه، فلمّا رأى الكُرج ذلك علموا أنّهم لا طاقة لهم بالبلد، فرحلوا بعد أن أثخن أهل كَنجَة فيهم[1]. ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِم لَمْ يَنَالُوا خَيْراً﴾[2].

ذكر وصول جلال الدّين بن خُوارزم شاه إلى خوزستان والعراق

في أوّل هذه السنة وصل جلال الدّين بن خُوارزم شاه محمّد بن تكش إلى بلاد خُوزستان والعراق، وكان مجيئه من بلاد الهند، لأنّه كان وصل إليها لمّا قصد التتر غَزْنَة، وقد ذكرنا ذلك جميعه، فلمّا تعذّر عليه المقام ببلاد الهند سار عنها على كَرمان، ووصل إلى أصفهان وهي بيد أخيه غياث الدّين، وقد تقدّمت أخباره، فملكها، وسار عنها إلى بلاد فارس، وكان أخوه قد استولى على بعضها، كما ذكرناه، فأعاد ما كان أخوه أخذه منها إلى أتابَك سعد صاحبها، وصالحه، وسار من عنده إلى خُوزستان، فحصر مدينة تُسْتَر في المحرّم وبها الأمير مظفّر الدّين المعروف بوجه

(١) العسجد المسبوك ٢/ ٤٠٢.
(٢) سورة الأحزاب، الآية ٢٥.

السبُع، مملوك الخليفة النّاصر لدين الله، حافظاً لها، وأميراً عليها، فحصره جلال الدّين، وضيّق عليه، فحفظها وجه السبُع، وبالغ في الحِفظ والاحتياط، وتفرّق الخوارزميّة ينهبون، حتّى وصلوا إلى بادرايا وباكسايا وغيرهما، وانحدر بعضهم إلى ناحية البصرة، فنهبوا هنالك، فسار إليهم شِحنة البصرة، وهو الأمير ملتكين[١]، فسار إليهم فأوقع بهم، وقتل منهم جماعة، فدام الحصار نحو شهرَيْن، ثمّ رحل عنها بغتةً.

وكانت عساكر الخليفة، مع مملوكه جمال الدّين قشتمر، بالقرب منه، فلمّا رحل جلال الدّين لم يقدر العسكر على منعه، فسار إلى أن وصل إلى بعقوبا، وهي قرية مشهورة بطريق خُراسان، بينهما وبين بغداد نحو سبعة فراسخ، فلمّا وصل الخبر إلى بغداد تجهّزوا للحصار، وأصلحوا السلاح من الجروخ، والقسيّ والنُشّاب، والنّفط، وغير ذلك، وعاد عسكر الخليفة إلى بغداد.

ووأمّا عسكر[٢] جلال الدّين فنهب البلاد وأهلكها، وكان قد وصل هو وعسكره إلى خُوزستان في ضرّ شديد وجهد جهيد، وقلّة من الدّوابّ، والذي معهم فهو من الضّعف إلى حدّ لا يُنتفع به، فغنموا من البلاد جميعها، واستغنوا، وأكثروا من أخذ الخيل والبغال، فإنّهم كانوا في غاية الحاجة إليها.

وسار من بعقوبا إلى دَقوقا فحصرها، فصعِد أهلها إلى السور وقاتلوه، وسبّوه، وأكثروا من التّكبير، فعظُم ذلك عنده، وشقّ عليه، وجدّ في قتالهم، ففتحها عَنوةً وقهراً، ونهبتها عساكره، وقتلوا كثيراً من أهلها، فهرب مَن سلم منهم من القتل وتفرّقوا في البلاد.

ولمّا كان الخُوارزميّون على دَقوقا سارت سريّة منهم إلى البَتّ والراذان[٣]، فهرب أهلها إلى تكريت، فتبِعهم الخُوارزميّة، فجرى بينهم وبين عسكر تكريت وقعة شديدة، فعادوا إلى العسكر[٤].

ولقد رأيتُ بعض أعيان أهل دَقوقا وهم بنو يَعْلَى، وهم أغنياء، فنُهبوا، وسلِم

---

(١) في النسخة رقم ٧٤٠ «ملتكين».

(٢) في الأوربية: «عساكر».

(٣) في النسخة رقم ٧٤٠ «والرادان» بالدال المهملة.

(٤) مرآة الزمان ج ٨، ق ٢/ ٦٣٤، ذيل الروضتين ١٤٤، المختار من تاريخ ابن الجزري ١١٩، العسجد المسبوك ٢/ ٤٠٢.

أحدهم، ومعه ولدان له، وشيء يسير من المال، فسيّر ما سلِم معه إلى الشام مع الولديْن ليتَّجر بما ينتفعون به وينفقونه على نفوسهم، فمات أحد الولدين بدمشق، واحتاط الحاكم على ما معهم، فلقد رأيت أباهم على حالة شديدةٍ لا يعلمها إلاّ الله، يقول: أُخذت الأموال والأملاك، وقُتل بعض الأهل، وفارق من سلِم منهم الوطن بهذا القدر الحقير، أردنا [أن] نكفّ به وجوهنا من السؤال، ونصون أنفسنا، فقد ذهب الولد والمال.

ثمّ سار إلى دمشق ليأخذ ما سلِم مع ابنه الآخر، فأخذه وعاد إلى الموصل، فلم يبق غير شهر حتّى تُوفّي؛ إنّ الشقيّ بكلّ حبل يُخنق.

وأمّا جلال الدّين فإنّه لمّا فعل بأهل دَقوقا ما فعل خافه أهل البَوازيج، وهي لصاحب الموصل، فأرسلوا إليه يطلبون منه إرسال شِحنة إليهم يحميهم، وبذلوا له شيئاً من المال، فأجابهم إلى ذلك، وسيّر إليهم من يحميهم.

قيل كان بعض أولاد جِنكِزْخان، ملك التتر، أسره جلال الدّين في بعض حروبه مع التّتر، فأكرمه، فحماهم، وأقام بمكانه إلى أواخر ربيع الآخر، والرسل متردّدة بينه وبين مظفّر الدّين، صاحب إربل، فاصطلحوا، فسار جلال الدّين إلى أذْرَبِيجان، وفي مدّة مُقام جلال الدّين بخوزستان والعراق ثارت العرب في البلاد يقطعون الطّريق، وينهبون القرى، ويخيفون السبيل، فنال الخلق منهم أذًى شديد، وأخذوا في طريق العراق قَفَلين عظيمين كانا[1] سائرين إلى الموصل، فلم يسلم منهما[2] شيء البتّة.

ذكر وفاة الملك الأفضل وغيره من الملوك

في هذه السنة، في صفر، تُوفّي الملك الأفضل عليُّ بن صلاح الدّين يوسف بن أيّوب فجأةً بقلعة سُمَيْساط، وكان عمره نحو سبْعٍ وخمسين سنة، وقد ذكرنا سنة تسعٍ وثمانين وخمسمائة عند وفاة والده، رحمه الله، مُلكه مدينة دمشق والبيت المقدّس، وغيرهما من الشام، وذكرنا سنة اثنتين وتسعين أخْذ الجميع منه، ثمّ ذكرنا سنة خمسٍ وتسعين مُلكه ديار مصر، وذكرنا سنة ستّ وتسعين أخذها منه، وانتقل إلى سُمَيساط وأقام بها، ولم يزل بها إلى الآن، فتُوفّي بها.

وكان، رحمه الله، من محاسن الزّمان، لم يكن في الملوك مثله، كان خيّراً

---

(١) في الأوروبية: «كانوا».

(٢) في الأوروبية: «منهم».

عادلاً فاضلاً حليماً كريماً قلّ أن عاقب على ذنب، ولم يمنع طالباً، وكان يكتب خطّاً حسناً، وكتابة[1] جيّدة، وبالجملة، فاجتمع فيه من الفضائل والمناقب ما تفرّق في كثير من الملوك، لا جَرَم حُرم المُلْك والدّنيا، وعاداه الدّهر، ومات بموته كلّ فِعل جليل، فرحمه الله ورضي عنه[2].

ورأيتُ من كتابته أشياء حسنة، فممّا بقي على خاطري منها أنّه كتب إلى بعض أصحابه، لمّا أُخذت دمشق منه، كتاباً، من فصوله: وأمّا أصحابنا بدمشق فلا علم لي بأحدٍ منهم، وسبب ذلك أنّي:

أيُّ صديقٍ سألتُ عنه، ففي الذُّ لِّ وتحتَ الخمولِ في الوطَنِ
وأيُّ ضِدّ سألتُ حالتَهُ سمعتُ ما لا تُحبُّه أُذُني

فتركتُ السؤال عنهم؛ وهذا غاية الجودة في الاعتذار عن ترك السؤال والصاحب.

ولمّا ملك اختلف أولاده وعمّهم قُطْب الدّين موسى، ولم يَقْوَ أحد منهم على الباقين ليستبدّ بالأمر.

[الوَفَيَات]

ومات في هذه السنة صاحب أرْزَن الروم، وهو مغيث الدّين طُغرُل بن قَلِج[3] أرسلان، وهو الذي سيّر ولده إلى الكُرج، وتنصّر وتزوّج ملكة الكُرج؛ ولمّا مات ملك بعده ابنه.

ومات فيها ملك أرزَنْكان.

وتُوفّي فيها عزّ الدّين الخضر[4] بن إبراهيم بن أبي بكر بن قرا أرسلان بن داود بن سُقمان، صاحب خَرْتَ بِرت، وملك بعده ابنه نور الدّين أرتق[5] شاه، وكان

---

(١) في الأوربية: «وكناية».

(٢) أنظر عن (الملك الأفضل) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٢٢هـ.) رقم ١٢٢ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٣) أنظر عن (طغرل بن قلج) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٢٢هـ.) رقم ٩١، والوافي بالوفيات ١٦/ ٤٥٥، ٤٥٦، رقم ٤٩٠.
وقد ضبط في طبعة صادر ١٢/ ٤٢٩ بسكون اللام، والصواب بالكسر، ويرد «قليج»، ومعناه بالتركية: السيف.

(٤) أنظر عن «الخضر» في: العسجد المسبوك ٢/ ٤١٤.

(٥) في النسخة رقم ٧٤٠ «اربو».

المدبّر لدولته ودولة والده معين الدّين بدر بن عبد الرحمن البغداديّ الأصل، الموصليّ المنشأ.

ذكر خلع شِروان شاه وظفر المسلمين بالكُرج

في هذه السنة ثار على شِرْوان شاه ولده فنزعه من الملك، وأخرجه من البلاد، وملك بعده.

وسبب ذلك أنّ شِرْوان شاه كان سيّء السيرة، كثير الفساد والظلم، يتعرّض لأموال الرعايا وأملاكهم.

وقيل أيضاً: إنّه كان يتعرّض للنساء والولدان، فاشتدّت وطأته على الناس، فاتّفق بعض العسكر مع ولده، وأخرجوا أباه من البلاد، وملك الابن، وأحسن السيرة، فأحبّه العساكر والرعيّة، وأرسل الولد إلى أبيه يقول له: إنّي[1] أردتُ أن أتركك في بعض القلاع وأُجري لك الجرايات الكثيرة، ولكلّ مَن تحبّ أن يكون عندك، والذي حملني على ما فعلتُ معك سوء سيرتك وظلمك لأهل البلاد، وكراهيتهم لك ولدولتك.

فلمّا رأى الأب ذلك سار إلى الكُرج واستنصر بهم، وقرّر معهم أن يرسلوا معه عسكراً يعيدونه إلى مُلكه، ويعطيهم نصف البلاد، فسيّروا معه عسكراً كثيراً، فسار حتّى قارب مدينة شِرْوان، فجمع ولده العسكر، وأعلمهم الحال، وقال: إنّ الكُرج متى حصرونا ربّما ظفروا بنا، وحينئذٍ لا يُبقي أبي على أحد منّا، ويأخذ الكُرج نصف البلاد، وربّما أخذوا الجميع، وهذا أمر عظيم، والرأي أنّنا نسير إليهم جريدة ونلقاهم، فإنْ ظفرنا بهم فالحمد لله، وإن ظفروا بنا فالحصْر بين أيدينا؛ فأجابوه إلى ذلك.

فخرج في عسكره، وهم قليل، نحو ألف فارس، ولقوا الكُرج وهم في ثلاثة آلاف مقاتل، فالتقوا واقتتلوا، وصبر أهل شِرْوان، فانهزم الكُرج، فقُتل كثير منهم، وأُسر كثير، ومَن سلم عاد بأسْوَإ حال، وشِروان شاه المخلوع معهم، فقال له مقدّمو الكُرج: إنّنا لم نَلقَ بسببك خيراً، ولا نؤاخذك بما كان منك، فلا تُقم ببلادنا؛ ففارقهم وبقي متردّداً لا يأوي إلى أحد، واستقرّ ولده في الملك وأحسن إلى الجُند والرعيّة،

---

(١) في الأوربية: «إن».

وأعاد إلى الناس أملاكهم ومصادراتهم، فاغتبطوا بولايته[1].

ذكر ظفر المسلمين بالكُرج أيضاً

وفي هذه السنة أيضاً سار جمعٌ من الكُرج من تِفْلِيس يقصدون أذْرَبِيجان والبلاد التي بيد أوزبك، فنزلوا وراء مضيق في الجبال لا يُسْلك إلاّ للفارس بعد الفارس، فنزلوا آمنين من المسلمين استضعافاً لهم، واغتراراً بحصانة موضعهم، وأنّه لا طريق إليهم.

وركب طائفة من العساكر الإسلاميّة وقصدوا الكُرج، فوصلوا إلى ذلك المضيق، فجازوه مخاطرين، فلم يشعر الكُرج إلاّ وقد غشِيَهم المسلمون ووضعوا فيهم السيف فقتلوهم كيف شاؤوا، وولّى الباقون منهزمين لا يلوي والد على ولده، ولا أخ على أخيه، وأُسر منهم جمع كثير صالح، فعظُم الأمر عليهم، وعزموا على الأخذ بثأرهم، والجدّ في قصد أذْرَبِيجان واستئصال المسلمين منه، وأخذوا يتجهّزون على قدر عزمهم.

فبينما هم في ذلك إذ وصل إليهم الخبر بوصول جلال الدّين بن خُوارزم شاه إلى مَراغة، على ما نذكره إن شاء الله، فتركوا ذلك وأرسلوا إلى أوزبك، صاحب أذْرَبِيجان، يدعونه إلى الموافقة على ردّ جلال الدّين، وقالوا: إن لم نتّفق نحن وأنت، وإلاّ أخذك، ثمّ أخذنا؛ فعاجلهم جلال الدّين قبل اتّفاقهم واجتماعهم، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر مُلك جلال الدين أذْرَبِيجان

في هذه السنة استولى جلال الدّين على أذْرَبِيجان؛ وسبب ذلك أنّه لمّا سار من دَقُوقَا، كما ذكرناه، قصد مَراغة فملكها وأقام بها، وشرع في عمارة البلد، فاستحسنه؛ فلمّا وصل إليها أتاه الخبر أنّ الأمير إيغان طائيسي[2]، وهو خال أخيه غياث الدّين، قد قصد هَمَذان قبل وصول جلال الدّين بيومَيْن.

وكان إيغان طائيسي هذا قد جمع عسكراً كثيراً يبلغون خمسة آلاف[3] فارس، ونهب كثيراً من أذْرَبِيجان، وسار إلى البحر من بلد أرّان، فشتّى هنالك لقلّة البرد،

---

(1) العسجد المسبوك ٢/ ٤٠٤، ٤٠٥.

(2) في تاريخ الإسلام (حوادث ٦٢٢هـ.) ص ٩ «إيغان طائي».

(3) في تاريخ الإسلام (حوادث ٦٢٢هـ.) ص ٩ «نحو خمسين ألفاً».

ولمّا عاد إلى هَمَذان نهب أذْرَبيجان أيضاً مرّة ثانيةً.

وكان سبب مسيره إلى هَمَذان أنّ الخليفة الناصر لدين الله راسله وأمره بقصد هَمَذان، وأقطعه إيّاها وغيرها، فسار ليستولي عليها كما أُمر، فلمّا سمع جلال الدّين بذلك سار جريدة إليه، فوصل إلى إيغان طائيسي ليلاً، وكان إذا نزل جعل حول عسكره جميع ما غنموا من أذْرَبِيجان وأرّان من خَيل، وبِغال، وحمير، وبقر، وغنم. فلمّا وصل جلال الدّين أحاط بالجميع، فلمّا أصبح عسكر إيغان طائيسي ورأى العسكر والجتر الذي يكون على رأس السلطان، علموا أنّه جلال الدّين، فسُقط في أيديهم لأنّهم كانوا يظنّونه عند دَقوقا، فأرسل إيغان طائيسي زوجته، وهي أخت جلال الدّين، تطلب له الأمان، فأمّنه وأحضره عنده، وانضاف عسكره إلى عسكر جلال الدّين، وبقي إيغان طائيسي وحده إلى أن أضاف إليه جلال الدّين عسكراً غير عسكره، وعاد إلى مراغة، وأعجبه المقام بها[1].

وكان أوزْبك بن البهلوان، صاحب أذْرَبِيجان وأرّان، قد سار من تِبرِيزَ إلى كَنْجَة خوفاً من جلال الدّين، وأرسل جلال الدّين إلى مَن في تِبرِيز من والٍ وأمير ورئيس يطلب منهم أن يتردّد عسكره إليهم يمتارون، فأجابوه إلى ذلك وأطاعوه، فتردّد العسكر إليها، وباعوا واشتروا الأقوات والكسوات وغيرها، ومدّوا أيديهم إلى أموال الناس، فكان أحدهم يأخذ الشيء ويعطي الثمن ما يُريد؛ فشكا بعض أهل تِبرِيز إلى جلال الدّين منهم، فأرسل إليهم شِحنة يكون عندهم، وأمره أن يقيم بتِبرِيز، ويكفّ أيدي الجُند عن أهلها، ومن تعدّى على أحد منهم صلبه، فأقام الشِحنة، ومُنع الجُند من التّعدّي على أحد من الناس.

وكانت زوجة أوزْبك، وهي ابنة السلطان طُغرُل بن أرسلان بن طُغرُل بن محمّد بن ملكشاه، مقيمة بتِبرِيز، وهي كانت الحاكمة في بلاد زوجها، وهو مشغول بلذّاته من أكل وشرب ولعب.

ثمّ إنّ أهل تِبرِيز شكوا من الشِحنة وقالوا: إنه يكلّفنا أكثر من طاقتنا؛ فأمر جلال الدّين أنه لا يُعطى إلاّ ما يقيم به لا غير، ففعلوا ذلك، وسار جلال الدّين إلى تِبرِيز وحصرها خمسة أيّام، وقاتل أهلها قتالاً شديداً، وزحف إليها فوصل العسكر إلى

---

(١) أنظر: مفرّج الكروب ١٤٨/٤، ١٤٩، المنتخب من تاريخ ابن الجزري ١١٩، ١٢٠، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٢٢هـ) ص ٨، العسجد المسبوك ٢/ ٤٠٣.

السور، فأذعن أهلها بالطاعة، وأرسلوا يطلبون الأمان منه لأنّه كان يذمّهم، ويقول: قتلوا أصحابنا المسلمين وأرسلوا رؤوسهم إلى التتر الكفّار؛ وقد تقدّمت الحادثة سنة إحدى وعشرين وستّمائة؛ فخافوا منه لذلك، فلمّا طلبوا الأمان ذكر لهم فعلهم بأصحاب أبيه وقتلهم، فاعتذروا بأنّهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك، وإنّما فعله صاحبهم، ولم يكن لهم من القدرة ما يمنعونه، فعذرهم، وأمّنهم، وطلبوا منه أن يؤمّن زوجة أوزبك، ولا يعارضها في الذي لها بأذْرَبِيجان وهو مدينة خُوَيّ وغيرها من ملك ومال وغيره، فأجابهم إلى ذلك.

وملك البلد سابع عشر رجب من هذه السنة، وسيّر زوجة أوزبك إلى خُوَيّ، ومعها طائفة من العسكر، مع رجل كبير القدر، عظيم المنزلة، وأمرهم بخدمتها، فإذا وصلت إلى خُوَيّ عادوا عنها.

ولمّا رحل جلال الدّين إلى تِبرِيز أمر أن لا يمنعوا عنه أحداً من أهلها، فأتاه الناس مسلّمين عليه، فلم يُحجبوا عنه، وأحسن إليهم، وبثّ فيهم العدل، ووعدهم الإحسان والزيادة منه، وقال لهم: قد رأيتم ما فعلتُ بمَراغَة من الإحسان والعمارة بعد أن كانت خراباً، وسترون كيف أصنع معكم من العدل فيكم، وعمارة بلادكم.

وأقام إلى يوم الجمعة، فحضر الجامع، فلمّا خطب الخطيب ودعا للخليفة قام قائماً، ولم يزل كذلك حتّى فرغ من الدّعاء وجلس.

ودخل إلى كُشْك كان أوزبك قد عمره، وأخرج عليه من الأموال كثيراً، فهو في غاية الحسن، مشرف على البساتين، فلمّا طاف فيه خرج منه وقال: هذا مسكن[١] الكسالى لا يصلح لنا. وأقام أيّاماً استولى فيها على غيرها من البلاد، وسيّر الجيوش إلى بلاد الكُرج[٢].

ذكر انهزام الكرج من جلال الدين

قد ذكرنا فيما تقدّم من السنين ما كان الكُرج يفعلونه في بلاد الإسلام: خِلاط، وأذْرَبِيجان، وأرّان، وأرزَن الروم، ودَرْبَنْد شِرْوان؛ وهذه ولايات تجاور بلادهم، وما كانوا يسفكون من دماء المسلمين، وينهبون من أموالهم، ويملكون من بلادهم، والمسلمون معهم في هذه البلاد تحت الذلّ والخزي، كلّ يوم قد أغاروا عليهم وقتلوا

---

(١) في الأوربية: «مساكن».

(٢) تاريخ الإسلام (حوادث ٦٢٢هـ.) ص ١١.

فيهم، وقاطعوهم على ما شاؤوا من الأموال، فكنّا كلّما سمعنا بشيء من ذلك سألنا الله تعالى، نحن والمسلمون، في أن ييسّر للإسلام والمسلمين مَن يحميهم وينصرهم، ويأخذ بثأرهم، فإن أوزبك، صاحب أذْرَبِيجان، منعكفٌ على شهوة بطنه وفرْجه، لا يفيق من سُكره، وإن أفاق.فهو مشغول بالقمار بالبيض.

وهذا ما لم يُسمع بمثله أنّ أحداً من الملوك فعله، لا يهتدي لمصلحة، ولا يغضب لنفسه بحيث إنّ بلاده مأخوذة، وعساكره طمّاعة، ورعيّته قد قهرها؛ وقد كان كلّ من أراد أن يجمع جمعاً ويتغلّب على بعض البلاد فعل، كما ذكرناه من حال بُغدي، وأيبك الشاميّ، وإيغان طائيسي، فنظر الله تعالى إلى أهل هذه البلاد المساكين بعين الرحمة، فرحمهم ويسّر لهم جلال الدّين هذا، ففعل بالكُرج ما تراه[1]، وانتقم للإسلام والمسلمين منهم فنقول:

في هذه السنة كان المصافّ بين جلال الدّين بن خُوارزم شاه [وبين الكُرج، في شهر شعبان، فإنّ جلال الدّين] من حين وصل إلى هذه النواحي لا يزال يقول: إنّني أريد [أن] أقصد بلاد الكُرج وأُقاتلهم وأملك بلادهم؛ فلمّا ملك أذْرَبِيجان أرسل إليهم يؤذِنهم بالحرب، فأجابوه بأننا قد قصدنا التتر الذين فعلوا بأبيك، وهو أعظم منك مُلكاً، وأكثر عسكراً، وأقوى نفساً، ما تعلمه، وأخذوا بلادكم، فلم نُبال بهم، وكان قُصاراهم السلامة منّا.

وشرعوا يجمعون العساكر، فجمعوا ما يزيد على سبعين ألف مقاتل، فسار إليهم، فملك مدينة دَوِين، وهي للكُرج، كانوا قد أخذوها من المسلمين، كما ذكرناه، وسار منها إليهم، فلقوه وقاتلوه أشدّ قتال وأعظمه، وصبر كلّ منهم لصاحبه، فانهزم الكُرج، وأمر أن يُقتلوا بكلّ طريق، ولا يبقوا على أحد منهم؛ فالذي تحقّقناه أنّه قُتل منهم عشرون ألفاً، وقيل: أكثر من ذلك، فقيل: الكُرج جميعهم قُتلوا، وافترقوا، وأُسر كثير من أعيانهم، من جملتهم شلوة، فتمّت الهزيمة عليهم، ومضى إيواني منهزماً، وهو المقدّم على الكُرج جميعهم، ومرجعهم إليه، ومعوّلهم عليه، وليس لهم ملك، إنّما الملك امرأة، ولقد صدق رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، حيث يقول: «لن يُفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»[2].

---

(١) العسجد المسبوك ٢/ ٤٠٥، المختار من تاريخ ابن الجزري ١٢٠، ١٢١.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٥/١٣٦ في كتاب النبي، صلّى الله عليه وسلّم إلى كسرى وقيصر، وفي=

فلمّا انهزم إيواني أدركه[1] الطلب، فصعِد قلعة لهم على طريقهم، فاحتمى فيها، وجعل جلال الدّين عليها مَن يحصرها ويمنعه من النزول، وفرّق عساكره في بلاد الكُرج ينهبون، ويقتلون، ويسبون، ويخرّبون البلاد، فلولا ما أتاه من تِبرِيز ما أوجب عَوده لملك البلاد بغير تعب ولا مشقّة، لأنّ أهلها كانوا قد هلكوا، فهم بين قتيل وأسير وطريد[2].

ذكر عود جلال الدين إلى تِبريز ومُلكه مدينة كَنْجَة ونكاحه زوجة أوزبك

لمّا فرغ جلال الدّين من هزيمة الكُرج، ودخل البلاد وبثّ العساكر فيها، أمرهم بالمقام بها مع أخيه غياث الدّين، وعاد إلى تِبرِيز.

وسبب عوده أنّه كان قد خلّف وزيره شرف المُلك في تِبرِيز ليحفظ البلد، وينظر في مصالح الرعيّة، فبلغه عن رئيس تِبرِيز وشمس الدّين الطّغْرائيّ[3]، وهو المقدّم على كلّ مَن في البلد، وعن غيرهما من المقدّمين، أنّهم قد اجتمعوا، وتحالفوا على الامتناع على جلال الدّين، وإعادة البلد إلى أوزْبك، وقالوا: إنّ جلال الدّين قد قصد بلاد الكُرج، فإذا عصينا عليه وأحضرنا أوزْبك ومن معه من العساكر، يضطرّ جلال الدّين إلى العَود، فإذا عاد تبِعه الكُرج فلا يقدر على المقام، ويجتمع أوزْبك والكُرج ويقصدونه، فينحلّ نظام أمره، وتتمّ عليه الهزيمة.

فبنوا أمرهم على أنّ جلال الدّين يسير الهُوينا إلى بلاد الكُرج، ويتريّث في الطّريق احتياطاً منهم؛ فلمّا اتّفقوا على ذلك أتى الخبر إلى الوزير، فأرسل إلى جلال الدّين يعرّفه الحال، فأتاه الخبر وقد قارب بلاد الكُرج، فلم يُظهر من ذلك شيئاً وسار نحو الكُرج مُجِدّاً، فلقِيهم وهزمهم، فلمّا فرغ منهم قال لأمراء عساكره: إنّني قد بلغني من الخبر كذا وكذا، فتقيمون أنتم في البلاد على ما أنتم عليه من قتل مَن ظفرتم به، وتخريب ما أمكنكم من بلادهم، فإنّني خفتُ أن أعرّفكم قبل هزيمة الكُرج لئلاّ يلحقكم وهْنٌ وخوف.

= الفتن ٨/٩٧، والترمذي في الوصايا (٢٣٦٥)، والنسائي في آداب القضاة ٨/٢٢٧ باب: النهي عن استعمال النساء في الحكم، وأحمد في المسند ٥/٤٣، ٥١.

(١) في الأوربية: «فأدركه».

(٢) المختار من تاريخ ابن الجزري ١٢١، العسجد المسبوك ٢/٤٠٥، ٤٠٦.

(٣) في المختار: «الطغراني» وهو تحريف.

فأقاموا على حالهم، وعاد هو إلى تِبرِيز، وقبض على الرئيس والطُّغرائيّ وغيرهما، فأمّا الرئيس فأمر أن يُطاف به على أهل البلد، وكلّ من له عليه مظلمة فليأخذها منه، وكان ظالماً، ففرح الناس بذلك، ثمّ قتله؛ وأمّا الباقون فحُبسوا، فلمّا فرغ منهم واستقام له أمر البلد تزوّج زوجة أوزْبك ابنة السلطان طُغرُل، وإنّما صحّ له نكاحها لأنّه ثبت عن أوزبك أنّه حلف بطلاقها أنّه لا يقتل مملوكاً له اسمه (. . . .)[1] ثمّ قتله، فلمّا وقع الطلاق بهذه اليمين نكحها جلال الدّين، وأقام بتِبرِيز مدّة، وسيّر منها جيشاً إلى مدينة كَنْجَة فملكوها، وفارقها أوزْبك إلى قلعة كَنْجَة فتحصّن فيها.

فبلغني أنّ عساكر جلال الدّين تعرّضوا لأعمال هذه القلعة بالنهب والأخذ، فأرسل أوزْبك إلى جلال الدّين يشكو، ويقول: كنتُ لا أرضى بهذه الحال لبعض أصحابي، فأنا أسأل أن تكفّ الأيدي المتطرّقة إلى هذه الأعمال عنها. فأرسل جلال الدّين إليها مَن يحميها من التّعرّض لها من أصحابه وغيرهم[2].

ذكر وفاة الخليفة الناصر لدين الله

في هذه السنة، آخر ليلة من شهر رمضان، تُوفّي الخليفة الناصر لدين الله[3] أبو العبّاس أحمد بن المستضيء بأمر الله أبي محمّد الحسن بن المستنجد بالله أبي عبد الله بن المستظهر بالله أبي العبّاس أحمد بن المظفّر يوسف بن المقتفي لأمر الله أبي العبّاس محمّد بن المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله بن الذّخيرة محمّد بن القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي العبّاس أحمد بن إسحاق بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبي العبّاس أحمد بن الموفّق أبي أحمد محمّد بن جعفر المتوكّل على الله، ولم يكن الموفّق خليفةً، وإنّما كان وليّ عهد أخيه المعتمد على الله، فمات قبل المعتمد، فصار ولده المعتضد بالله وليّ عهد المعتمد على الله.

---

(١) ترك المؤلّف ـ رحمه الله ـ بياضاً مقدار كلمة لاسم المملوك متى وجده ليعود فيذكره، ولكنه لم يعد.

(٢) أنظر هذه الأخبار عن جلال الدين في سيرته التي كتبها «النسوي» ١٩٤ ـ ٢٠٧، والمختار من تاريخ ابن الجزري ١٢١، والعسجد المسبوك ٢/٤٠٦، ومفرّج الكروب ٤/١٤٩ ـ ١٥٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/١٣٥، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٢٢هـ.) ص ١٠.

(٣) أنظر عن (الخليفة الناصر لدين الله) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٢٢هـ.) رقم ٦٧ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

وكـان المتـوكّـل علـى الله ابـنَ المعتصـم بـالله أبـي إسحـاق محمّـد بـن هـرون الرشيد بن محمّد المهدي بن أبي جعفر عبد الله المنصور بن محمّد بن عليّ بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطّلب، رضي الله عنهم.

نسـبٌ كـأنّ عليـه مـن شَمـسِ الضُّحَـى نـوراً، ومـن فَلَـقِ الصبـاحِ عَمُـودا

فكان في آبائه أربعة عشر خليفة، وهم كلّ مَن له لَقَب، والباقون غير خلفاء، وكان فيهم من وليَ العهد محمّد بن القائم، والموفّق بن المتوكّل، وأمّا باقي الخلفاء من بني العبّاس فلم يكونوا من آبائه، فكان السفّاح أبو العبّاس عبد الله أخا المنصور وليَ قبله، وكان موسى الهادي أخا الرشيد وليَ قبله؛ وكان محمّد الأمين وعبد الله المأمون ابنا الرشيد أخوي المعتصم وليا قبله، وكان محمّد المنتصر بن المتوكّل وليَ بعده.

ثمّ وليَ بعد المنتصر بالله المستعين بالله أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن المعتصم، ووليَ بعد المستعين المعتزّ بالله محمّد، وقيل طلحة، وهو ابن المتوكّل، ووليَ بعد المعتزّ المهتدي بالله محمّد بن الواثق، ثمّ وليَ بعده المعتمد على الله أحمد بن المتوكّل، فالمنتصر، والمعتزّ، والمعتمد إخوة الموفّق، والمهتدي ابن عمّه، والموفّق من أجداد الناصر لدين الله.

ثمّ وليَ المعتضد بعد المعتمد، ووليَ بعد المعتضد ابنه أبو محمّد عليّ المكتفي بالله، وهو أخو المقتدر بالله، ووليَ بعد المقتدر بالله أخوه القاهر بالله أبو منصور محمّد بن المعتضد؛ ووليَ بعد القاهر الراضي بالله أبو العبّاس محمّد بن المقتدر.

ثمّ وليَ بعده المتّقي لله أبو إسحق إبراهيم بن المقتدر؛ ثمّ وليَ بعده المستكفي بالله أبو القاسم عبد الله [بن] المكتفي بالله عليّ بن المعتضد، ثمّ وليَ بعده المطيع لله أبو بكر عبد الكريم، فالقاهر، والراضي، والمتّقي، والمطيع بنوه، والمستكفي ابن أخيه المكتفي.

[ثمّ وليَ] الطائع لله بن المقتدر؛ ثمّ وليَ بعد الطائع القادر[1] بالله، و [هو] من أجداد الناصر لدين الله؛ ثمّ وليَ بعده المستظهر بالله؛ [ثمّ وليَ بعده ابنه المسترشد بالله أبو منصور، ووليَ بعد المسترشد بالله][2] ابنه الراشد أبو جعفر، فالمسترشد أخو

---

(١) في النسخة رقم ٧٤٠ «المقتدر».

(٢) ما بين الحاصرتين من النسخة ٧٤٠.

المتّقي، والراشد بالله ابن أخيه، فجمع من وليَ الخلافة ممّن ليس في سياق نسب الناصر تسعة عشر خليفة.

وكانت أمّ الناصر أمّ ولد، تركيّة، اسمها زُمُرّد؛ وكانت خلافته ستّاً وأربعين سنة وعشرة أشهر وثمانية وعشرين يوماً، وكان عمره نحو سبعين سنة تقريباً، فلم يلِ الخلافة أطول مدّة منه إلاّ ما قيل عن المستنصر بالله العلويّ، صاحب مصر، فإنّه وليَ ستّين سنة، ولا اعتبار به، فإنّه وليَ وله سبْع سنين فلا تصحّ ولايته.

وبقي الناصر لدين الله ثلاث سنين عاطلاً عن الحركة بالكليّة، وقد ذهبت إحدى عينَيْه والأخرى يبصر بها إبصاراً ضعيفاً، وفي آخر الأمر أصابه دوسنطاريا عشرين يوماً ومات.

وَوَزَرَ له عدّة وزراء، وقد تقدّم ذِكرهم، ولم يُطلق في طول مرضه شيئاً كان أحدثه من الرسوم الجائرة؛ وكان قبيح السيرة في رعيّته، ظالماً، فخرّب في أيّامه العراق، وتفرّق أهله في البلاد، وأخذ أملاكهم وأموالهم، وكان يفعل الشيء وضدّه، فمن ذلك أنّه عمل دور الضّيافة ببغداد ليفطر الناس عليها في رمضان، فبقيت مدّة، ثمّ قطع ذلك، ثمّ عمل دُور الضيافة للحجّاج، فبقيت مدّة، ثمّ بطّلها، وأطلق بعض المكوس التي جدّدها ببغداد خاصّة، ثمّ أعادها[1]. وجعل جُلّ همّه في رمي البندق، والطّيور المناسيب، وسراويلات الفتوّة، فبطّل الفتوّة في البلاد جميعها، إلاّ من يلبس منه سراويل يدّعى إليه، ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة.

وكذلك أيضاً منع الطّيور المناسيب لغيره إلاّ ما يؤخذ من طيوره، ومنع الرمي بالبندق إلاّ مَن ينتمي إليه؛ فأجابه الناس بالعراق وغيره إلى ذلك إلاّ إنساناً واحداً يقال له ابن السفت من بغداد، فإنّه هرب من العراق ولحِق بالشام، فأرسل إليه يرغّبه في المال الجزيل ليرمي عنه، وينسب في الرمي إليه، فلم يفعل، فبلغني أنّ بعض أصدقائه أنكر عليه الامتناع من أخذ المال، فقال: يكفيني فخراً أنّه ليس في الدنيا أحدٌ إلاّ يرمي للخليفة، إلاّ أنا.

فكان غرام الخليفة بهذه الأشياء من أعظم الأمور، وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنّه هو الذي أطمع التّتر في البلاد، وراسلهم في ذلك، فهو الطامّة

(١) العسجد المسبوك ٢/٤٠٨.

الكبرى التي يصغر عندها كلّ ذنب عظيم.

ذكر خلافة الظاهر بأمر الله

قد ذكرنا سنة خمس وثمانين وخمسمائة الخطبة للأمير أبي نصر محمّد ابن الخليفة الناصر لدين الله بولاية العهد في العراق وغيره من البلاد، ثمّ بعد ذلك خلعه الخليفة من ولاية العهد، وأرسل إلى البلاد في قطع الخطبة له، وإنّما فعل ذلك لأنّه كان يميل إلى ولده الصغير عليّ، فاتّفق أنّ الولد الصغير تُوفّي سنة اثنتي عشرة وستّمائة، ولم يكن للخليفة ولد غير وليّ العهد، فاضطرّ إلى إعادته، إلاّ أنّه تحت الاحتياط والحجر لا يتصرّف في شيء.

فلمّا تُوفّي أبوه وليَ الخلافة، وأحضر الناس لأخذ البيعة، وتلقّب بالظاهر بأمر الله، وعنى أنّ أباه وجميع أصحابه أرادوا صرف الأمر عنه، فظهر ووليَ الخلافة بأمر الله لا بسعيٍ من أحد.

ولمّا وليَ الخلافة أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سُنّة العُمَرين، فلو قيل إنّه لم يلِ الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقاً، فإنّه أعاد من الأموال المغصوبة في أيّام أبيه وقبله شيئاً كثيراً، وأطلق المكوس في البلاد جميعها، وأمر بإعادة الخراج القديم في جميع العراق، وأن يُسقط جميع ما جدّده أبوه، وكان كثيراً لا يحصى؛ فمن ذلك أنّ قرية بَعقوبا كان يحصل منها قديماً نحو عشرة آلاف دينار، فلمّا تولّى الناصر لدين الله كان يؤخذ منها كلّ سنة ثمانون ألف دينار، فحضر أهلها واستغاثوا، وذكروا أنّ أملاكهم أُخذت حتّى صار يحصل منها هذا المبلغ، فأمر أن يؤخذ الخراج القديم وهو عشرة آلاف دينار، فقيل له إنّ هذا المبلغ يصل إلى المخزن، فمن أين يكون العوض؟ فأقام لهم العوض من جهات أخرى؛ فإذا كان المطلق من جهة واحدة سبعين ألف دينار، فما الظنّ بباقي البلاد؟[1]

ومن أفعاله الجميلة أنّه أمر بأخذ الخراج الأوّل من باقي البلاد جميعها، فحضر كثير من أهل العراق، وذكروا أنّ الأملاك التي كان يؤخذ منها الخراج قديماً قد يبس أكثر أشجارها وخربت، ومتى طولبوا بالخراج الأوّل لا يفي دَخل الباقي بالخراج، فأمر أن لا يؤخذ الخراج إلاّ من كلّ شجرة سليمة، وأمّا الذهب فلا يؤخذ منه شيء، وهذا عظيم جدّاً.

---

(١) العسجد المسبوك ٢/ ٤١٣.

ومن ذلك أيضاً أنّ المخزن كان له صَنجة الذهب تزيد على صنجة البلد نصف قيراط، يقبضون بها المال، ويُعطون بالصَّنجة التي للبلد يتعامل بها الناس، فسمع بذلك فخرج خطّه إلى الوزير، وأوّله ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ، أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1]. قد بلغنا أنّ الأمر كذا وكذا، فتعاد صَنجة المخزن إلى الصَّنجة التي يتعامل بها المسلمون، واليهود، والنصارى.

فكتب بعض النّواب إليه يقول: إنّ هذا مبلغ كثير، وقد حسبناه فكان في السنة الماضية خمسة وثلاثين ألف دينار؛ فأعاد الجواب ينكر على القائل، ويقول: لو أنّه ثلاث مائة ألف وخمسون ألف دينار يُطلق.

وكذلك أيضاً فعل في إطلاق زيادة الصنجة التي للدّيوان، وهي في كلّ دينار حبّة، وتقدّم إلى القاضي أنّ كلّ من عرض عليه كتاباً صحيحاً بمِلكٍ يعيده إليه من غير إذن؛ وأقام رجلاً صالحاً في ولاية الحشري وبيت المال، وكان الرجل حَنبليّاً، فقال: إنّني من مذهبي أن أورّث ذوي الأرحام، فإن أذِن أمير المؤمنين أن أفعل ذلك وليت وإلاّ فلا. فقال له: أعط كلّ ذي حقّ حقّه، واتّق الله ولا تتّق سواه.

ومنها أنّ العادة كانت ببغداد أنّ الحارس بكّل درب يُبكر، ويكتب مطالعة إلى الخليفة بما تجدّد في دربه من اجتماع بعض الأصدقاء ببعض على نُزهة، أو سماع، أو غير ذلك، ويكتب ما سوى ذلك من صغير وكبير، فكان الناس من هذا في حجر عظيم، فلمّا وليَ هذا الخليفة، جزاه الله خيراً، أتته المطالعات على العادة، فأمر بقطعها، وقال: أيّ غرض لنا في معرفة أحوال الناس في بيوتهم؟ فلا يكتب أحدٌ إلينا إلاّ ما يتعلّق بمصالح دولتنا؛ فقيل له: إنّ العامّة تفسد بذلك، ويعظم شرّها؛ فقال: نحن ندعو الله أن يصلحهم.

ومنها أنّه لمّا وليَ الخلافة وصل صاحب الدّيوان من واسط، وكان قد سار إليها أيّام الناصر لتحصيل الأموال، فأصعد، ومعه من المال ما يزيد على مائة ألف دينار، وكتب مطالعة تتضمّن ذكر ما معه، ويستخرج الأمر في حمله؛ فأعاد الجواب بأن يُعاد إلى أربابه، فلا حاجة لنا إليه، فأعيد عليهم.

---

(١) سورة المطفّفين، الآيات ١ ـ ٥.

ومنها أنّه أخرج كلّ مَن كان في السجون، وأمر بإعادة ما أُخذ منهم، وأرسل إلى القاضي عشرة آلاف دينار ليعطيها عن كلّ مَن هو محبوس في حبس الشرع وليس له مال.

ومن حسن نيّته للناس أنّ الأسعار في الموصل وديار الجزيرة كانت غالية، فرخصت الأسعار، وأطلق حمل الأطعمة إليها، وأن يبيع كلّ من أراد البيع للغلّة، فحمل منها الكثير الذي لا يحصى، فقيل له: إنّ السعر قد غلا شيئاً، والمصلحة المنع منه؛ فقال: أولئك مسلمون، وهؤلاء مسلمون، وكما يجب علينا النظر في أمر هؤلاء كذلك يجب علينا النظر لأولئك.

وأمر أن يُباع من الأهراء التي له طعام أرخص ممّا يبيع غيره، ففعلوا ذلك، فرخصت الأسعار عندهم أيضاً أكثر ممّا كانت أوّلاً، وكان السعر في الموصل، لمّا وليَ، كلّ مكّوك بدينار وثلاثة قراريط، فصار كلّ أربعة مكاكيك بدينار في أيّام قليلة، وكذلك باقي الأشياء من التمْر، والدّبْس، والأرزّ، والسِّمْسِم وغيرها، فالله تعالى يؤيّده، وينصره، ويبقيه، فإنّه غريب في هذا الزمان الفاسد.

ولقد سمعتُ عنه كلمة أعجبتني جدّاً، وهي أنّه قيل له في الذي يُخرجه ويُطلقه من الأموال التي لا تسمح نفس ببعضها؛ فقال لهم: أنا فتحتُ الدكّان بعد العصر، فاتركوني أفعل الخير، فكم أعيش؟ وتصدّق ليلة عيد الفِطر من هذه السنة، وفرّق في العلماء وأهل الدّين مائة ألف دينار.

ذكر مُلك بدر الدين قلعتَي العِماديّة وهَرُوزَ

في هذه السنة ملك بدر الدّين قلعة العماديّة من أعمال الموصل، وقد تقدّم ذكر عصيان أهلها عليه سنة خمس عشرة وستّمائة، وتسليمها إلى عماد الدّين زنكي، ثمّ عودهم إلى طاعة بدر الدّين، وخِلافهم على عماد الدّين، فلمّا عادوا إلى بدر الدّين أحسن إليهم، وأعطاهم الإقطاع الكثير، وملّكهم القرى، ووصلهم بالأموال الجزيلة والخِلع السنيّة، فبقوا كذلك مدّة يسيرة.

ثمّ شرعوا يراسلون عماد الدّين زنكي، ومظفّر الدّين صاحب إزبل، وشهاب الدّين غازي بن العادل، لمّا كان بخِلاط، ويعِدون كلاًّ منهم بالانحياز إليه والطاعة له، وأظهروا من المخالفة لبدر الدّين ما كانوا يبطنونه، فكانوا لا يمكّنون أن يقيم عندهم من أصحاب بدر الدّين إلاّ من يريدونه، ويمنعون من كرهوه؛ فطال الأمر، وهو

يحتمل فعلهم ويداريهم، وهم لا يزدادون إلاّ طمعاً وخروجاً عن الطاعة.

وكانوا جماعة، فاختلفوا، فقوي بعضهم، وهم أولاد خواجه إبراهيم وأخوه ومن معهم، على الباقين، فأخرجوهم عن القلعة، وغلبوا عليها، وأصرّوا على ما كانوا عليه من النفاق.

فلمّا كان هذه السنة سار بدر الدّين إليهم في عساكره، فأتاهم بغتةً، فحصرهم، وضيّق عليهم، وقطع الميرة عنهم، وأقام بنفسه عليهم، وجعل قطعة من الجيش على قلعة هَرُوزَ يحصرونها، وهي من أمنع الحصون وأحصنها، لا يوجد مثلها. وكان أهلها أيضاً قد سلكوا طريق أهل العماديّة من عصيان، وطاعة، ومخادعة، فأتاهم العسكر وحصروهم وهم في قلّة من الذّخيرة، فحصروها أيّاماً، ففني ما في القلعة، فاضطرّ أهلها إلى التسليم، فسلّموها ونزلوا منها.

وعاد العسكر إلى العِماديّة، فأقاموا عليها مع بدر الدّين، فبقي بدر الدّين بعد أخذ هَرُوز يسيراً، وعاد إلى الموصِل، وترك العسكر بحاله مع ابنه أمين الدّين لؤلؤ، فبقي الحصار إلى أوّل ذي القعدة، فأرسلوا يُذعنون بالطاعة، ويطلبون العوض عنها ليسلّموها، فاستقرّت القواعد على العوض من قلعة يحتمون فيها، وأقطاع، ومال، وغير ذلك، فأجابهم بدر الدّين إلى ما طلبوا، وحضر نوّابهم ليحلّفوا بدر الدين.

فبينما هو يريد أن يحلف لهم وقد أحضر مَنْ يشهد اليمين إذ قد وصل طائر من العماديّة وعلى جناحه رقعة من أمين الدّين لؤلؤ يخبر أنّه قد ملك العماديّة قهراً وعَنوةً، وأسر بني خواجه الذين كانوا تغلّبوا عليه، فامتنع بدر الدّين من اليمين.

وأمّا سبب غَلَبَة أمين الدّين عليها، فإنّه كان قد ولاّه بدر الدّين عليها لمّا عاد أهلها إلى طاعته، فبقي فيها مُدّة، وأحسن فيهم، واستمال جماعة منهم ليتقوّى بهم على الحرب للذين عصوا أوّلاً، فنمى الخبر إليهم، فأساؤوا مجاورته، واستقالوا من ولايته عليهم، ففارقهم إلى الموصل.

وكان أولئك الذين استمالهم يكاتبونه ويراسلونه، فلمّا حصرهم كانوا أيضاً يكاتبونه في النّشّاب يخبرونه بكلّ ما يفعله أولاد خواجه من إنفاذ رسول وغير ذلك، وبما عندهم من الذّخائر وغيرها، إلاّ أنّهم لم يكونوا من الكثرة إلى حدّ أنّهم يقهرون أولئك.

فلمّا كان الآن واستقرّت القواعد من التسليم لم يذكر أولادُ خواجه أحداً من جُند

القلعة في نسخة اليمين بمال، ولا غيره من أمان، وإقطاع، فسخطوا هذه الحال، وقالوا لهم: قد حلّفتم لأنفسكم بالحصون والقرى والمال، ونحن قد خربت بيوتنا لأجلكم، فلم تذكرونا؛ فأهانوهم، ولم يلتفتوا إليهم، فحضر عند أمين الدّين رجلان منهم ليلاً، وطلبوا منه أن يرسل إليهم جمعاً يُصعدونهم إلى القلعة، ويثبون بأولئك ويأخذونهم، فامتنع، وقال: أخاف أن لا يتمّ هذا الأمر ويفسد علينا كلّ ما فعلناه. فقالوا: نحن نقبض عليهم غداً بُكرة، وتكون أنت والعسكر على ظَهْر، فإذا سمعتم النداء باسم بدر الدّين وشعاره تصعدون إلينا؛ فأجابهم إلى ذلك.

وركب بنفسه بُكرة هو والعسكر على العادة، وأمّا أولئك فإنّهم اجتمعوا، وقبضوا على أولاد خواجه ومَن معهم ونادوا بشعار بدر الدّين، فبينما العسكر قيام إذا الصوت من القلعة باسم بدر الدّين، فصعدوا إليها وملكوها، وتسلّم أمين الدّين أولاد خواجه فحبسهم، وكتب الرقعة على جناح الطّائر بالحال، وملكوا القلعة صفواً عفواً بغير عوض، وكان يريد [أن] يغرم مالاً جليلاً، وأقطاعاً كثيرة، وحصناً منيعاً، فتوفّر الجميع عليه، وأخذ منهم كلّ ما احتقبوه وادّخروه؛ وإذا أراد الله أمراً فلا مردّ له[1].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة ليلة الأحد العشرين من صفر زُلزلت الأرض بالموصل، وديار الجزيرة، والعراق، وغيرها، زلزلة متوسّطة[2].

وفيها اشتدّ الغلاء بالموصل، وديار الجزيرة جميعها، فأكل الناس الميتة، والكلاب، والسنانير، فقلّت الكلاب والسنانير بعد أن كانت كثيرة[3]. ولقد دخلتُ يوماً إلى داري، فرأيتُ الجواري يقطّعن اللحم ليطبخنه[4]، فرأيت سنانير استكثرتُها، فعددتُها، فكانت اثني عشر سنّوراً، ورأيت اللحم في هذا الغلاء في الدّار وليس عنده من يحفظه من السنانير لعدمها، وليس بين المرّتين كثير. وغلا مع الطعام كلّ شيء فبيع رطل الشّيرَج بقيراطين بعد أن كان بنصف قيراط قبل الغلاء، وأمّا قبل ذلك فكان كلّ ستّين رطلاً بدينار.

---

(١) العسجد المسبوك ٢/ ٤٠٧.

(٢) العسجد المسبوك ٢/ ٤١٣.

(٣) في الأوربية: «كانوا كثيراً».

(٤) في الأوربية: «ليطبخوه».

ومن العجب أنّ السّلق والجزَرَ والشّلجَم بِيع كلّ خمسة أرطال بدرهم، وبيع البَنَفْسَجُ كلّ ستّة أرطال بدرهم، وبيع في بعض الأوقات كلّ سبعة أرطال بدرهم، وهذا ما لم يُسمع بمثله. فإنّ الدّنيا ما زالت قديماً وحديثاً، إذا غلت الأسعار، متى جاء المطر رخصت، إلاّ هذه السنة فإنّ الأمطار ما زالت متتابعة من أوّل الشتاء إلى آخر الربيع، وكلّما جاء المطر غلت الأسعار، وهذا ما لم يُسمع بمثله، فبلغت الحنطة مكّوك وثلث بدينار وقيراط، يكون وزنه خمسة وأربعين رطلاً دقيقاً بالبغداديّ، وكان الملك مكّوك بدرهم، فصار المكّوك بعشرة دراهم، وكان الأرزّ مكّوك باثني عشر[1] درهماً، فصار المكّوك بخمسين درهماً[2]، وكان التمر كلّ أربعة أرطال وخمسة أرطال بقيراط، فصار كلّ رطلين بقيراط.

ومن عجب ما يُحكى أنّ السكّر النادر الأسمر كان كلّ رطل بِدِرهم ورُبع، وكان السُّكّر الأبلوج المصريّ النّقيّ كلّ رِطل بدرهمين، فصار[3] السكّر الأسمر كلّ رطل بثلاثة دراهم ونصف، والسكّر الأبلوج كلّ رطل بثلاثة دراهم وربع؛ وسببه أنّ الأمراض لمّا كثُرت، واشتدّ الوباء، قالت النساء: هذه الأمراض باردة والسكّر الأسمر حارّ فينفع منها، والأبلوج بارد يقوّيها، وتبِعهنّ الأطبّاء استمالةً لقلوبهنّ، ولجهلهم، فغلا الأسمر بهذا السبب؛ وهذا من الجهل المفرِط.

وما زالت الأشياء هكذا إلى أوّل الصيف، واشتدّ الوباء، وكثُر الموت والمرض في الناس، فكان يُحمل على النعش الواحد عدّة من الموتى[4]، فممّن مات فيه شيخنا عبد المحسن بن عبد[5] الله الخطيب، الطُّوسيّ، خطيب الموصل، وكان من صالحي المسلمين، وعُمره ثلاثٌ وثمانون سنة وشهور.

وفيها انخسف القمر ليلة الثلاثاء خامس عشر صفر.

وفيها هرب أمير حاجّ العراق، وهو حسام الدّين أبو فراس الحِلّيّ، الكرديّ، الورّاميّ، وهو ابن أخي الشيخ ورّام؛ كان عمّه من صالحي المسلمين وخيارهم من

---

(١) في الأوربية: «عشرة».

(٢) العسجد المسبوك ٢/٤١٣.

(٣) في الأوربية: «صار».

(٤) تاريخ الإسلام (حوادث ٦٢٢هـ.) ص ١٣، العسجد المسبوك ٢/٤١٣.

(٥) أنظر عن (عبد المحسن بن عبد الله) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٢٢هـ.) رقم ١١٢ وفيه مصادر ترجمته.

أهل الحِلّة السيفيّة، فارق الحاجّ بين مكّة والمدينة وسار إلى مصر.

حكى لي بعض أصدقائه أنّه إنّما حمله على الهرب كثرة الخرج في الطريق، وقلّة المعونة من الخليفة، ولمّا فارق الحاجّ خافوا خوفاً شديداً من العرب، فأمّن الله خوفهم، ولم يذعرهم ذاعر في جميع الطريق، ووصلوا آمنين، إلاّ أنّ كثيراً من الجِمال هلك، أصابها غُدّة عظيمة فلم يسلم إلاّ القليل.

وفيها، في آب، جاء مطر شديد ورعد وبرق، ودام حتّى جرت الأودية، وامتلأت الطُرق بالوحل؛ ثمّ جاء الخبر من العراق، والشام، والجزيرة، وديار بكر، أنّه كان عندهم مثله، ولم يصل إلينا بالموصل أحد إلاّ وأخبر أنّ المطر كان عندهم مثله في ذلك التاريخ[١].

وفيها كان في الشتاء ثلج كثير، ونزلتُ بالعراق، فسمعتُ أنّه نزل في جميع العراق، حتّى في البصرة؛ أمّا إلى واسط فلا شكّ فيه؛ وأمّا البصرة فإنّ الخبر لم يكثُر عندنا بنزوله فيها[٢].

وفيها خربت قلعة الزّعفران من أعمال الموصل، وهي حصن مشهور يُعرف قديماً بدير الزّعْفران، وهو على جبل عالٍ قريب من فرشابور[٣].

وفيها أيضاً خربت قلعة الجَديدة من بلد الهكّاريّة، من أعمال الموصل أيضاً، وأضيف عملها وقراها إلى العِماديّة[٤].

وفيها، في ذي الحجّة، سار جلال الدّين بن خُوارِزم شاه من تِبرِيز إلى بلد الكُرج قاصداً لأخذ بلادهم واستئصالهم، وخرجت السنة ولم يبلغنا أنه فعل بهم شيئاً، ونحن نذكر ما فعله بهم سنة ثلاثٍ وعشرين وستّمائة إن شاء الله.

وفيها، ثالث شباط، سقط ببغداد ثلج، وبرد الماء برداً شديداً، وقوي البرد حتّى مات به جماعة من الفقراء.

وفيها، في ربيع الأوّل، زادت دِجلة زيادة عظيمة، واشتغل الناس بإصلاح سكْر القُورَج، وخافوا، فبلغت الزيادة قريباً من الزيادة الأولى، ثمّ نقص الماء واستبشر الناس.

---

(١) العسجد المسبوك ٢/ ٤١٤.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه.

٦٢٣
ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستّمائة

ذكر مُلك جلال الدين تِفلِيس

في هذه السنة، ثامن ربيع الأوّل، فتح جلال الدّين بن خُوارِزم شاه مدينة تِفلِيس من الكُرج؛ وسبب ذلك أنّا قد ذكرنا سنة اثنتين وعشرين وستّمائة الحرب بينه وبينهم، وانهزامهم منه، وعَوده إلى تِبرِيز بسبب الخُلف الواقع فيها، فلمّا استقرّ الأمر في أذَرَبيجان عاد إلى بلد الكُرج في ذي الحجّة من السنة، وخرجت سنة اثنتين وعشرين وستّمائة، ودخلت هذه السنة، فقصد بلادهم، وقد عادوا فحشدوا وجمعوا من الأمم المجاورة لهم اللاّن واللّكز وقفجاق وغيرهم، فاجتمعوا في جمع كثير لا يُحصَى، فطمعوا بذلك، ومنّتهم أنفسهم الأباطيل، ووعدهم الشيطان الظَّفَر ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾[1] فلقِيهم، وجعل لهم الكمين في عدّة مواضع، والتقوا واقتتلوا، فولّى الكُرج منهزمين لا يلوي الأخ على أخيه، ولا الوالد على ولده، وكلّ منهم قد أهمّته نفسه، وأخذتهم سيوف المسلمين من كلّ جانب، فلم ينج منهم إلاّ اليسير الشاذّ الذي لا يُعْبَأ به؛ وأمر جلال الدّين عسكره أن لا يُبقوا على أحد، وأن يقتلوا مَن وجدوا، فتبِعوا المنهزمين يقتلونهم، وأشار عليه أصحابه بقصد تِفلِيس دار ملكهم، فقال: لا حاجة لنا إلى أن نقتل رجالنا تحت الأسوار، إنّما إذا أفنيتُ الكُرج أخذتُ البلاد صَفْواً عفْواً.

ولم تزل العساكر تتبعهم وتستقصي في طلبهم إلى أن كادوا يفنونهم، فحينئذٍ قصد تِفلِيس ونزل بالقرب منها. وسار في بعض الأيّام في طائفة من العسكر، وقصدها لينظر إليها، ويبصر مواضع النزول عليها، وكيف يقاتلها، فلمّا قاربها كمن أكثر العسكر الذي معه في عدّة مواضع، ثمّ تقدّم إليها في نحو ثلاثة آلاف فارس، فلمّا رآه

(١) سورة النساء، الآية ١٢٠.

مَن بها من الكُرج طمعوا فيه لقلّة من معه، ولم يعلموا أنّه معهم، فظهروا إليه فقاتلوه، فتأخّر عنهم، فقوي طمعهم فيه لقلّة من معه، فظنّوه منهزماً، فتبِعوه، فلمّا توسّطوا العساكر[1] خرجوا عليهم ووضعوا السيف فيهم، فقُتل أكثرهم، وانهزم الباقون إلى المدينة فدخلوها، وتبِعهم المسلمون، فلمّا وصلوا إليها نادى المسلمون من أهلها بشعار الإسلام، وباسم جلال الدّين، فألقى الكُرج بأيديهم واستسلموا، لأنّهم كانوا قد قُتل رجالهم في الوقعات المذكورة، فقلّ عددهم، ومُلئت قلوبهم خوفاً ورعباً، فملك المسلمون البلد عَنوةً وقهراً بغير أمان، وقُتل كلّ مَن فيه من الكُرج، ولم يُبق على كبيرٍ ولا صغير إلاّ مَن أذعن بالإسلام، وأقرّ بكلمتَي الشهادة، فإنّه أبقى عليه، وأمرهم فتختّنوا وتركهم.

ونهب المسلمون الأموال، وسبوا النساء واسترقّوا الأولاد، ووصل إلى المسلمين الذين بها بعض الأذى من قتْلٍ ونهْب وغيره.

وتِفلِيس هذه من أحصن البلاد وأمنعها، وهي على جانبيْ نهر الكرّ، وهو نهر كبير، ولقد جلّ هذا الفتح وعظُم موقعه في بلاد الإسلام وعند المسلمين، فإنّ الكرج كانوا قد استطالوا عليهم، وفعلوا بهم ما أرادوا، فكانوا يقصدون أيّ بلاد أذْرَبِيجان أرادوا، فلا يمنعهم عنها مانع، ولا يدفعهم عنها دافع؛ وهكذا أرْزَن الروم، حتّى إنّ صاحبها لبس خِلعة ملك الكُرج، ورفع على رأسه علماً في أعلاه صليبٌ، وتنصّر ولده رغبة في نكاح ملكة الكُرج، وخوفاً منهم، ليدفع الشرّ عنه، وقد تقدّمت القصّة، وهكذا دَرْبَنْد شِرْوان.

وعظُم أمرهم إلى حدّ أنّ ركن الدّين بن قلج أرسلان، صاحب قونيّة، وأقصرا، ومَلَطْيَة، وسائر بلاد الروم التي للمسلمين، جمع عساكره، وحشد معها غيرها فاستكثر، وقصد أرْزَن الروم، وهي لأخيه طُغْرُل شاه بن قَلِج أرسلان، فأتاه الكُرج وهزموه، وفعلوا به وبعسكره كلّ عظيم، وكان أهل دَرْبَنْد شِرْوان معهم في الضّنْك والضيقة.

وأمّا أرمينية، فإنّ الكُرج دخلوا مدينة أرْجِيشَ، وملكوا قرس وغيرها، وحصروا خِلاط، فلولا أنّ الله سبحانه مَنّ على المسلمين بأسر إيواني، مقدّم عساكر الكُرج،

(١) في الجريدة الآسيوية لسنة ١٨٤٩ مجلّد ٢/ ٤٨٨ «الكمناء».

لملكوها، فاضطرّ أهلها إلى أن بنوا لهم بِيعة في القلعة يُضرب فيها الناقوس، فرحلوا عنهم، وقد تقدّم تفصيل هذه الحملة.

ولم يزل هذا الثغر من أعظم الثغور ضرراً على المجاورين له من الفُرس، قبل الإسلام، وعلى المسلمين بعدهم، من أوّل الإسلام إلى الآن، ولم يقدم أحد عليهم هذا الإقدام، ولا فعل بهم هذه الأفاعيل، فإنّ الكُرج ملكوا تِفلِيس سنة خمس عشرة وخمسمائة، والسلطان حينئذٍ محمود بن محمود بن ملكشاه السلجوقيّ، وهو من أعظم السلاطين منزلة، وأوسعهم مملكة، وأكثرهم عساكر، فلم يقدر على منعهم عنها؛ هذا مع سعة بلاده، فإنّه كان له الرَّيّ وأعمالها، وبلد الجبل، وأصفهان، وفارس، وخُوزستان، والعراق، وأذْرَبيجان، وأرّان، وأرمينية، وديار بكر، والجزيرة، والموصل، والشام، وغير ذلك، وعمّه السلطان سَنجَر له خُراسان وما وراء النهر، فكان أكثر بلاد الإسلام بأيديهم، ومع هذا فإنّه جمع عساكره سنة تسع عشرة وخمسمائة، وسار إليهم بعد أن ملكوها، فلم يقدر عليهم.

ثمّ ملك بعده أخوه السلطان مسعود، وملك إلدكز بلد الجبل، والرَّيّ، وأصفهان، وأذْرَبيجان، وأرّان، وأطاعه صاحب خِلاط، وصاحب فارس، وصاحب خُوزستان، وجمع وحشد لهم، وكان قصاراه أن يتخلّص منهم، ثمّ ابنه البهلوان بعده، وكانت البلاد في أيّام أولئك عامرة كثيرة الأموال والرجال، فلم يحدّثوا أنفسهم بالظفر بهؤلاء، حتّى جاء هذا السلطان والبلاد خراب قد أضعفها الكُرج أوّلاً، ثمّ استأصلها التتر، لعنهم الله، على ما ذكرنا، ففعل بهم هذه الأفاعيل، فسبحان مَن إذا أراد أمراً قال له كن فيكون[1].

ذكر مسير مظفّر الدّين صاحب إربِل إلى المَوصِل وعوده عنها

في هذه السنة، في جُمادى الآخرة، سار مظفّر الدّين بن زين الدّين، صاحب إرْبِل، إلى أعمال الموصِل، قاصداً[2] إليها. وكان السبب في ذلك أنّه استقرّت القاعدة بينه وبين جلال الدّين بن خُوارِزم شاه وبين الملك المعظّم، صاحب دمشق، وبين صاحب آمِد، وبين ناصر الدّين، صاحب ماردين، ليقصدوا البلاد التي بيد الأشرف،

---

(١) سيرة جلال الدين منكبرتي ٢١٠ وما بعدها، البداية والنهاية ١٣/ ١١٢، العسجد المسبوك ٢/٤١٧، المختصر في أخبار البشر ٣/١٣٦، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٢٣هـ).

(٢) في النسخة رقم ٧٤٠ «قاصدين».

ويتغلّبوا عليها، ويكون لكلّ منهم نصيب ذكره؛ واستقرّت القواعد بينهم على ذلك، فبادر مظفّر الدّين إلى الموصِل.

وأمّا جلال الدّين فإنّه سار من تِفلِيس يريد خِلاط، فأتاه الخبر أن نائبه ببلاد كَرمان، واسمه بلاق[1] حاجب، قد عصى عليه، على ما نذكره، فلمّا أتاه الخبر بذلك ترك خِلاط ولم يقصدها، إلاّ أنّ عسكره نهب بعض بلدها وخرّب كثيراً منه، وسار مُجِدّاً إلى كَرمان، فانفسخ جميع ما كانوا عزموا عليه، إلاّ أنّ مظفّر الدّين سار من إرْبِل ونزل على جانب الزّاب، ولم يمكنه العبور إلى بلد الموصِل.

وكان بدر الدّين قد أرسل من المَوصِل إلى الأشرف، وهو بالرَّقَّة، يستنجده، ويطلب منه أن يحضر بنفسه الموصِل ليدفع مظفّر الدّين، فسار منها إلى حَرّان، ومن حَرّان إلى دُنَيْسِر، فخرب بلد ماردين وأهله تخريباً ونهباً.

وأمّا المعظّم، صاحب دمشق، فإنّه قصد بلد حِمص وحَماة، وأرسل إلى أخيه الأشرف يقول: إن رحلتَ عن ماردين وحلب، وأنا عن حمص وحماة، وأرسلت إلى مظفّر الدّين ليرجع عن بلد الموصل؛ فرحل الأشرف عن ماردين، وعاد كلّ منهم إلى بلده، وخربت أعمال الموصِل، وأعمال ماردين بهذه الحركة، فإنّها كانت قد أجحف بها تتابع الغلاء وطول مدّته، وجلاء أكثر أهلها، فأتتها هذه الحادثة فازدادت خراباً على خراب[2].

ذكر عصيان كرمان على جلال الدّين ومسيره إليها

في هذه السنة، في جُمادى الآخرة، وصل الخبر إلى جلال الدّين أنّ نائبه بكَرمان، وهو أمير كبير اسمه بلاق حاجب، قد عصى عليه، وطمع في البلاد أن يتملّكها ويستبدّ بها لبُعد جلال الدّين عنها، واشتغاله بما ذكرناه من الكُرج وغيرهم، وأنّه أرسل إلى التتر يعرّفهم قوّة جلال الدّين وملكه كثيراً من البلاد، وإنْ أخذ الباقي عظُمت مملكته، وكثُرت عساكره، وأخذ ما بأيديكم من البلاد.

فلمّا سمع جلال الدّين ذلك كان قد سار يريد خِلاط، فتركها وسار إلى كَرمان [يطوي المراحل، وأرسل بين يديه رسولاً إلى صاحب كَرمان][3]، ومعه الخِلع ليطمئنّ

---

(١) في سيرة جلال الدين، ص ٢١٥ «براق».

(٢) سيرة جلال الدين ٢١٥، البداية والنهاية ١٣/ ١١٢ (باختصار)، العسجد المسبوك ٢/ ٤١٨.

(٣) ما بين الحاصرتين من النسخة رقم ٧٤٠.

ويأتيه وهو غير محتاط ولا مستعدّ للامتناع منه؛ فلمّا وصل الرسول علم أنّ ذلك مكيدة عليه لِما يعرفه من عادته، فأخذ ما يعزّ عليه، وصعِد إلى قلعة منيعة فتحصّن بها، وجعل مَنْ يثق به[1] من أصحابه في الحصون يمتنعون بها، وأرسل إلى جلال الدّين يقول: إنّني أنا العبد والمملوك؛ ولمّا سمعتُ بمسيرك إلى هذه البلاد أخليتُها لك لأنّها بلادك، ولو علمتُ أنّك تُبقي عليّ لحضرتُ بابك، ولكنّي أخاف هذا جميعه؛ والرسول يحلف (له)[2] أنّ جلال الدّين بتِفلِيس، وهو لا يلتفت إلى قوله، فعاد الرسول، فعلم جلال الدّين أنّه لا يمكنه أخذ ما بيده من الحصون لأنّه يحتاج [أن] يحصرها مدّة طويلة، فوقف بالقرب من أصفهان، وأرسل إليه الخِلعَ، وأقرّه على ولايته.

فبينما الرسل تتردّد إذ وصل رسول من وزير جلال الدّين إليه من تِفلِيس يعرّفه أنّ عسكر الملك الأشرف الذي بخِلاط قد هزموا بعض عسكره وأوقعوا بهم، ويحثّه على العَود إلى تِفلِيس، فعاد إليها مسرعاً[3].

ذكر الحرب بين عسكر الأشرف وعسكر جلال الدّين

لمّا سار جلال الدّين إلى كَرمان ترك بمدينة تِفلِيس عسكراً مع وزيره شرف المُلك، فقلّت عليهم الميرة، فساروا إلى أعمال أرْزَن الروم، فوصلوا إليها، ونهبوها، وسبوا النساء، وأخذوا من الغنائم شيئاً كثيراً لا يُحصى، وعادوا فكان طريقهم على أطراف ولاية خِلاط، فسمع النائب عن الأشرف بخِلاط، وهو الحاجب حسام الدّين على الموصل، فجمع العسكر وسار إليهم، فأوقع بهم، واستنقذ ما معهم من الغنائم، وغنم كثيراً ممّا معهم، وعاد هو وعساكره سالمين.

فلمّا فعل ذلك خاف وزير جلال الدّين منهم، فأرسل إلى صاحبه بكَرمان يعرّفه الحال، ويحثّه على العَود إليه، ويخوّفه عاقبه التّواني والإهمال، فرجع فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

---

(١) في الأوربية: «إليه».

(٢) من النسخة رقم ٧٤٠.

(٣) الخبر باختصار في: المختصر في أخبار البشر ١٣٦/٣، وزبدة الحلب ١٩٩/٣، ومفرّج الكروب ١٨٦/٤ ـ ١٨٨، والمختار في تاريخ ابن الجزري ١٢٨، ١٢٩، والعسجد المسبوك ٤١٨/٢، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٢٣هـ.).

ذكر وفاة الخليفة الظاهر بأمر الله

في هذه السنة، في الرابع عشر من رجب، تُوفّي الإمام الظاهر بأمر الله[1] أمير المؤمنين أبو نصر محمّد بن الناصر لدين الله أبي العبّاس أحمد بن المستضيء بأمر الله، وقد تقدّم نَسَبه عند وفاة أبيه، رضي الله عنهما، فكانت خلافته تسعة أشهر وأربعةَ وعشرين يوماً، وكان نِعم الخليفةَ، جمع الخشوع مع الخضوع لربّه، والعدل والإحسان إلى رعيّته، وقد تقدّم عند ذِكر ولايته الخلافة من أفعاله ما فيه كفاية؛ ولم يزل كلّ يوم يزداد من الخير والإحسان إلى الرعيّة، فرضي الله عنه وأرضاه، وأحسن مُنقلبه ومثواه، فلقد جدّد من العدل ما كان دارساً، وأذكر من الإحسان ما كان منسيّاً.

وكان قبل وفاته أخرج توقيعاً إلى الوزير بخطّه ليقرأه على أرباب الدّولة، وقال الرسول: أمير المؤمنين يقول: ليس غرضُنا أن يقال برز مرسوم، أو نُفّذ مُناك، ثمّ لا يبين له أثر، بل أنتم إلى إمام فعّال أحوج منكم إلى إمام قوّال؛ فقرأوه، فإذا في أوّله بعد البسملة:

«اعلموا أنّه ليس إمهالنا إهمالاً، ولا إغضاؤنا[2] إغفالاً، ولكن لِنبلُوَكُم أيّكم أحسن عملاً، وقد عفونا لكم ما[3] سلف من إخراب البلاد، وتشريد الرّعايا، وتقبيح السُّمعة، وإظهار الباطل الجليّ في صورة الحقّ الخفيّ حيلةً ومكيدة، وتسمية الاستئصال والاجتياح[4] استيفاء واستدراكاً لأغراض انتهزتم فرصَتها مختلسة من براثن لَيث باسل، وأنياب أسدٍ مهيب، تتّفقون بألفاظٍ مختلفة على معنًى واحد وأنتم أمناؤه وثقاته، فتُميلون رأيه إلى هواكم، وتمرجون باطلكم بحقّه، فيطيعكم وأنتم له عاصون، ويوافقكم وأنتم له مخالفون، والآن قد بدّل الله سبحانه بخوفكم أمناً، وبفقركم غِنى[5]، وبباطلكم حقّاً، ورزقكم سلطاناً يُقيل العثرة ويقبل المعذرة، ولا يؤاخذ إلاّ مَن أصرّ، ولا ينتقم إلاّ ممّن استمرّ؛ يأمركم بالعدل وهو يريده منكم، وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم، يخاف الله تعالى، فيخوّفكم مكره، ويرجو الله

---

(١) أنظر عن (الظاهر بأمر الله) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٢٣هـ.) رقم ٢٠٠ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٢) في المختار من تاريخ ابن الجزري ٣٣ «إغفاؤنا»، وهو تصحيف على الأرجح.

(٣) في المختار: «عما».

(٤) في الأوربية: «والاحتياج».

(٥) في الأوربية: «غناً»، وكذلك في المختار ١٣٤.

تعالى، ويرغّبكم في طاعته، فإن سلكتم مسالك خلفاء الله في أرضه وأُمَنائه على خلقه وإلاّ هلكتم، والسلام»[1].

ولمّا تُوفّي وجدوا في بيتٍ، في داره، ألوف رقاع كلّها مختومة لم يفتحها، فقيل له ليفتحها[2]، فقال: لا حاجة لنا فيها، كلّها سعايات.

ولم أزل، علم الله سبحانه، مُذْ وليَ الخلافة، أخاف عليه قِصَر المدّة لخبث الزمان وفساد أهله، وأقول لكثيرٍ من أصدقائنا: وما أخوفني أن تقصر مدّة خلافته، لأنّ زماننا وأهله لا يستحقّون خلافته؛ فكان كذلك.

ذكر خلافة ابنه المستنصر بالله

لمّا تُوفّي الظاهر بأمر الله بويع بالخلافة ابنه الأكبر أبو جعفر المنصور، ولُقب المستنصر بالله، وسلك في الخير والإحسان إلى الناس سيرة أبيه، رضي الله عنه، وأمر فنودي ببغداد بإفاضة العدل، وإنّ مَن كان له حاجة، أو مظلمة يطالع بها، تُقضى حاجته، وتُكشف مظلمته.

فلمّا كان أوّل جمعة أتت على خلافته أراد أن يصلّي الجمعة في المقصورة التي كان يصلّي فيها الخلفاء، فقيل له إنّ المطبق الذي يُسلك فيه إليها خراب لا يمكن سلوكه، فركب فرساً وسار إلى الجامع، جامع القصر، ظاهراً يراه الناس بقميص أبيض وعمامة بيضاء، بسكاكين حرير، ولم يترك أحداً يمشي معه بل أمر كلّ من أراد أن يمشي معه من أصحابه بالصلاة في[3] الموضع الذي كان يصلّي فيه، وسار هو ومعه خادمان ورِكابدار لا غير، وكذلك الجمعة الثانية حتى أصلح له المطبق.

وكان السعر قد تحرّك بعد وفاة الظاهر بأمر الله، رضي الله عنه، فبلغت الكارة ثمانية عشر قيراطاً، فأمر أن تباع الغلاّت التي له كلّ كارة بثلاثة عشر قيراطاً، فرخصت الأسعار واستقامت الأمور.

ذكر الحرب بين كَيقُبَاذَ وصاحب آمِد

في هذه السنة، في شعبان، سار علاء الدين كَيْقُباذ بن كَيْخَسْرُو [ابن] قَلْج

---

(١) المختار من تاريخ ابن الجزري ١٣٣، ١٣٤.

(٢) في المختار: «لما لا تفتحها» (ص ١٣٤).

(٣) في الأوربية: «إلى».

أرسلان، ملك بلاد الروم، إلى بلاد الملك المسعود، صاحب آمِد، وملك عدّة من حصونه[1].

وسبب ذلك ما ذكرناه من اتّفاق صاحب آمِد مع جلال الدّين بن خُوارزم شاه والملك المعظّم، صاحب دمشق، وغيرهما على خلاف الأشرف؛ فلمّا رأى الأشرف ذلك أرسل إلى كَيْقُبَاذَ، ملك الروم، وكانا متّفقين، يطلب منه أن يقصد بلد صاحب آمِد ويحاربه، وكان الأشرف حينئذٍ على ماردين، فسار ملك الروم إلى مَلَطْيَة، وهي له، فنزل عندها، وسيّر العساكر إلى ولاية صاحب آمِد، [ففتحوا حصن منصور وحصن سمكاراد وغيرهما؛ فلمّا رأى صاحب آمِد][2] ذلك راسل الأشرف، وعاد إلى موافقته، فأرسل الأشرف إلى كَيْقُبَاذَ يعرّفه ذلك، ويقول له ليعيد إلى صاحب آمِد ما أخذ منه، فلم يفعل، وقال: لم أكن نائباً للأشرف يأمرني وينهاني.

فاتّفق أنّ الأشرف سار إلى دمشق ليصلح أخاه الملك المعظّم، وأمر العساكر التي له بديار الجزيرة بمساعدة صاحب آمِد، إن أصرّ ملك الروم على قصده، فسارت عساكر الأشرف إلى صاحب آمِد وقد جمع عسكره ومَن ببلاده ممّن يصلح للحرب وسار إلى عسكر ملك الروم وهم يحاصرون قلعة الكختا بعد الهزيمة، وهي من أمنع الحصون والمعاقل، فلمّا ملكوها عادوا إلى صاحبهم.

ذكر حصر جلال الدّين مدينتَيْ آني وقرس

في هذه السنة، في رمضان، عاد جلال الدّين من كَرمان، كما ذكرناه، إلى تِفلِيس، وسار منها إلى مدينة آني، وهي للكُرج، وبها إيواني مقدّم عساكر الكُرج فيمن بقي معه من أعيان الكُرج، [فحصره وسيّر طائفة من العسكر إلى مدينة قرس وهي للكُرج] أيضاً، وكلاهما من أحصن البلاد وأمنعها، فنازلهما، وحصرهما، وقاتل من بهما، ونصب عليهما المجانيق، وجدّ في القتال عليهما، وحفظهما الكُرج، وبالغوا في الحِفظ والاحتياط لخوفهم منه أن يفعل بهم ما فعل بأشياعهم من قبل بمدينة تِفلِيس، وأقام عليهما إلى أن مضى بعض شوّال، ثمّ ترك العسكر عليهما يحصرونهما وعاد إلى تِفلِيس.

وسار من تِفلِيس مُجِدّاً إلى بلاد أبخاز وبقايا الكُرج، فأوقع بمن فيها، فنهب،

---

(1) العسجد المسبوك ٢/٤٢١، مفرّج الكروب ٤/٢٠٢، ٢٠٤، المختار من تاريخ ابن الجوزي ١٢٩.

(2) ما بين الحاصرتين من النسخة ٧٤٠.

وقتل، وسبى، وخرّب البلاد وأحرقها، وغنم عساكره ما فيها، وعاد منها إلى تِفلِيس[1].

ذكر حصْر جلال الدّين خلاط

قد ذكرنا أنّ جلال الدّين عاد من مدينة آني إلى تِفلِيس ودخل بلاد أبخاز، وكان رحيله مكيدة لأنّه بلغه أنّ النائب عن الملك الأشرف، وهو الحاجب حُسام الدّين عليّ بمدينة خِلاط، قد احتاط، واهتمّ بالأمر وحفظ البلد لقربه منه؛ فعاد إلى تِفلِيس ليطمئنّ أهل خِلاط ويتركوا[2] الاحتياط والاستظهار ثمّ يقصدهم بغتةً؛ فكانت غيبته ببلاد أبخاز عشرة أيّام، وعاد، وسار مُجِدّاً يطوي المراحل على عادته، فلو لم يكن عنده من يراسل نوّاب الأشرف بالأخبار لفجأهم[3] على حين غفلة منهم، وإنّما كان عنده بعض ثقاته يعرّفهم أخباره، وكتب إليهم فوصل الخبر إليهم قبل وصوله بيومَيْن.

ووصل جلال الدّين فنازل مدينة ملازكرد يوم السبت ثالث عشر ذي القعدة، ثمّ رحل عنها، فنازل مدينة خِلاط يوم الاثنَيْن خامس عشر ذي القعدة، فلم ينزل حتّى زحف إليها، وقاتل أهلها قتالاً شديداً، فوصل عسكره سور البلد، وقُتل بينهم قتلى كثيرة، ثمّ زحف إليها مرّة ثانية، وقاتل أهل البلد قتالاً عظيماً، فعظمت نكاية[4] العسكر في أهل خِلاط، ووصلوا إلى سور البلد، ودخلوا الربَض الذي له، ومدّوا أيديهم في النهْب وسبْي الحريم.

فلمّا رأى أهل خِلاط ذلك تذامروا، وحرّض بعضهم بعضاً، فعادوا إلى العسكر فقاتلوهم فأخرجوهم من البلد، وقُتل بينهم خلق كثير، وأسر العسكر الخُوارزميّ من أمراء خِلاط جماعة، وقُتل منهم كثير، وترجّل الحاجب عليّ، ووقف في نحر العدوّ، وأبلى بلاء عظيماً.

ثمّ إنّ جلال الدّين استراح عدّة أيّام، وعاود الزّحف مثل أوّل يوم، فقاتلوه حتّى أبعدوا عسكره عن البلد. وكان أهل خِلاط مُجِدّين في القتال، حريصين على المنع عن أنفسهم، لما رأوا من سوء سيرة الخُوارزميّين ونهبهم البلاد، وما فيهم من الفساد، فهم يقاتلون قتال من يمنع عن نفسه وحريمه وماله، ثمّ أقام عليها إلى أن اشتدّ البرد،

---

(١) العسجد المسبوك ٢/ ٤٢٣.

(٢) في الأوربية: «وتركوا».

(٣) في الأوربية: «الفجنهم».

(٤) في الأوربية: «فعظم نكامه».

ونزل شيء من الثلج، فرحل عنها يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذي الحجّة من السنة، وكان سبب رحيله مع خوف الثلج ما بلغه عن التّركمان الإيوانيّة من الفساد ببلاده[١].

ذكر إيقاع جلال الدّين بالتركمان الإيوانيّة

كان التركمان الإيوانيّة قد تغلّبوا على مدينة أسنة وأُرمِيَة، من نواحي أَذْرَبِيجان، وأخذوا الخراج من أهل خُوَيّ ليكفّوا عنهم، واغترّوا باشتغال جلال الدّين بالكُرج، وبعدهم بخِلاط، وازداد طمعهم، وانبسطوا بأَذْرَبِيجان ينهبون، ويقطعون الطريق؛ والأخبار تأتي إلى خُوارِزم شاه جلال الدّين بن خُوارزم شاه، وهو يتغافل عنهم لاشتغاله بما هو المهمّ عنده؛ وبلغ من طمعهم أنّهم قطعوا الطريق بالقرب من تِبرِيز، وأخذوا من تجّار أهلها شيئاً كثيراً، ومن جملة ذلك أنّهم[٢] اشتروا غَنماً من أَرْزَن الروم وقصدوا بها تِبرِيز، فلقِيهم الإيوانيّة قبل وصولهم إلى تِبرِيز، فأخذوا جميع ما معهم، ومن جملته عشرون ألف رأس غنم.

فلمّا اشتدّ ذلك على الناس وعظُم الشرّ أرسلت زوجة جلال الدّين ابنة السلطان طُغرُل ونوّابه في البلاد إليه يستغيثون، ويعرّفونه أنّ البلاد قد خرّبها الإيوانيّة، ولئن لم يلحقْها، وإلاّ هلكت بالمرّة.

فاتّفق هذا إلى خوف الثلج، فرحل عن خِلاط، وجدّ السير إلى الإيوانيّة، وهم آمنون مطمئنّون، لعلمهم أنّ خُوارِزم شاه على خِلاط، وظنّوا أنّه لا يفارقها، فلولا هذا الاعتقاد لصعدوا إلى جبال لهم منيعة شاهقة لا يُرتقى إليها إلاّ بمشقّة وعناء، فإنّهم كانوا إذا خافوا صعدوا إليها وامتنعوا بها؛ فلم يُرعهم إلاّ والعساكر الجلاليّة قد أحاطت بهم، وأخذهم السيف من كلّ جانب، فأكثروا القتل فيهم، والنهب، والسبي، واسترقّوا الحريم والأولاد، وأخذوا من عندهم ما لا يدخل تحت الحصر، فرأوا كثيراً من الأمتعة التي أخذوها من التّجّار بحالها في الشّذوات، هذا سوى ما كانوا قد حلّوه وفصلوه، فلمّا فرغ عاد إلى تِبريز[٣].

ذكر الصلح بين المُعظَّم والأشرف

نبتدىء بذكر سبب الاختلاف، فنقول: لمّا تُوفّي الملك العادل أبو بكر بن

---

(١) العسجد المسبوك ٢/ ٤٢٣.

(٢) في الأوربية: «أن منهم».

(٣) العسجد المسبوك ٢/ ٤٢٣ (باختصار).

أيوب، اتّفق أولاده الملوك بعده اتّفاقاً حسناً، وهم: الملك الكامل محمّد، صاحب مصر، والملك المعظّم عيسى، صاحب دمشق، والملك الأشرف موسى، وهو صاحب ديار الجزيرة وخِلاط، واجتمعت كلمتهم على دفع الفرنج عن الدّيار المصريّة.

ولمّا رحل الكامل عن دِمياط لمّا كان الفرنج يحصرونها، صادفه أخوه المعظّم من الغد، وقويت نفسه، وثبت قدمه، ولولا ذلك لكان الأمر عظيماً، وقد ذكرنا ذلك مفصّلاً، ثمّ إنّه عاد من مصر وسار إلى أخيه الأشرف ببلاد الجزيرة مرّتين يستنجده على الفرنج، ويحثّه على مساعدة أخيهما الكامل، ولم يزل به حتّى أخذه وسار إلى مصر، وأزالوا الفرنج عن الدّيار المصريّة، كما ذكرناه قبلُ، فكان اتّفاقهم على الفرنج سبباً لحفظ بلاد الإسلام، وسُرّ الناس أجمعون بذلك.

فلمّا فارق الفرنج مصر وعاد كلّ من الملوك أولاد العادل إلى بلده بقوا كذلك يسيراً، ثمّ سار الأشرف إلى أخيه الكامل بمصر، فاجتاز بأخيه المعظّم بدمشق، فلم يستصحبه معه، وأطال المقام بمصر، فلا شكّ أنّ المعظّم ساءه ذلك.

ثمّ إنّ المعظّم سار إلى مدينة حماة وحصرها، فأرسل إليه أخواه من مصر ورحّلاه عنها كارهاً، فازداد نفوراً، وقيل: إنّه نُقل إليه عنهما أنّهما اتّفقا عليه، والله أعلم بذلك.

ثمّ انضاف إلى ذلك أنّ الخليفة الناصر لدين الله، رضي الله عنه، كان قد استوحش من الكامل لِما فعله ولده صاحب اليمن من الاستهانة بأمير الحاجّ العراقيّ، فأعرض عنه وعن أخيه الأشرف لاتّفاقهما، وقاطعهما، وراسل مظفّر الدّين كُوكُبري بن زين الدّين عليّ، صاحب إربل، يُعلمه بانحرافه عن الأشرف، واستماله، واتّفقا على مراسلة المعظّم، وتعظيم الأمر عليه، فمال إليهما، وانحرف عن إخوته.

ثمّ اتّفق ظهور جلال الدّين وكثرة مُلكه، فاشتدّ الأمر على الأشرف بمجاورة جلال الدّين خُوارِزم شاه ولاية خِلاط، ولأنّ المعظّم بدمشق يمنع عنه عساكر مصر أن تصل إليه، وكذلك عساكر حلب وغيرها من الشام، فرأى الأشرف أن يسير إلى أخيه المعظّم بدمشق، فسار إليه في شوّال واستماله وأصلحه، فلمّا سمع الكامل بذلك عظُم عليه؛ ثمّ إنّهما راسلاه، وأعلماه بنزول جلال الدّين على خِلاط، وعظّما الأمر عليه، وأعلماه أنّ هذه الحال تقتضي الاتّفاق لعمارة البيت العادليّ، وانقضت السنة والأشرف بدمشق والناس على مواضعهم ينتظرون خروج الشتاء ما يكون من الخُوارزميّين،

وسنذكر ما يكون سنة أربعٍ وعشرين وستّمائة إن شاء الله تعالى[1].

ذكر الفتنة بين الفرنج والأرمن

في هذه السنة جمع البرِنس الفرنجيّ، صاحب أنطاكية، جموعاً كثيرة وقصد الأرمن الذين في الدّروب بلاد ابن ليون، فكان بينهم حرب شديدة.

وسبب ذلك أنّ ابن ليون الأرمنيّ، صاحب الدّروب، تُوفّي قبلُ ولم يخلّف ولداً ذكراً، إنّما خلّف بنتاً، فملّكها الأرمن عليهم، ثمّ علموا أنّ المُلك لا يقوم بامرأة، فزوّجوها من ولد البرنس، فتزوّجها، وانتقل إلى بلدهم، واستقرّ في المُلْك نحو سنة، ثمّ ندموا على ذلك، وخافوا أن يستولي الفرنج على بلادهم، فثاروا بابن البرِنس، فقبضوا عليه وسجنوه، فأرسل أبوه يطلب أن يُطلَق ويُعاد في المُلْك، فلم يفعلوا، فأرسل إلى بابا ملك الفرنج برومية الكبرى يستأذنه في قصد بلادهم، وملك رومية هذا أمره عند الفرنج لا يخالَف، فمنعه عنهم، وقال: إنّهم أهل ملّتنا، ولا يجوز قصد بلادهم؛ فخالفه وأرسل [إلى] علاء الدّين كَيْقُباذَ ملك قُونية ومَلَطْيَة وما بينهما من بلاد المسلمين، وصالحه، ووافقه على قصد بلاد ابن ليون، والاتّفاق على قصدها، فاتّفقا على ذلك، وجمع البرنس عساكره ليسير إلى بلاد الأرمن، فخالف عليه الدّاويّة والاسبتاريّة، وهما جمرة الفرنج، فقالوا: إنّ ملك رومية نهانا عن ذلك؛ إلاّ أنّه أطاعه غيرهم، فدخل أطراف بلاد الأرمن، وهي مضايق وجبال وعرة، فلم يتمكّن من فعل ما يريد.

وأمّا كيكاوُس، فإنّه قصد بلاد الأرمن من جهته، وهي أسهل من جهة الشام، فدخلها سنة اثنتين وعشرين وستّمائة، فنهبها، وأحرقها، وحصر عدّة حصون، ففتح أربعة حصون، وأدركها الشتاء فعاد عنها.

فلمّا سمع بابا ملك الفرنج برومية أرسل إلى الفرنج بالشام يعلمهم أنّه قد حَرم البرنس، فكان الدّاويّة والاسبتاريّة وكثير من الفرسان لا يحضرون معه، ولا يسمعون قوله؛ وكان أهل بلاده، وهي أنطاكية وطرابلس، إذا جاءهم عيد يخرج من عندهم، فإذا فرغوا من عيدهم دخل البلد.

ثمّ إنّه أرسل إلى ملك رومية يشكو من الأرمن، وأنّهم لم يُطلقوا ولده،

---

(١) أنظر الخبر باختصار في: ذيل الروضتين ١٤٨، ومفرّج الكروب ١٧٩/٤ ـ ١٨٠، وزبدة الحلب ١٩٨/٣، ١٩٩، والمختصر في أخبار البشر ١٣٦/٣، ونهاية الأرب ١٣٧/٢٩، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٢٣هـ).

ويستأذنه في أن يدخل بلادهم ويحاربهم إن لم يطلقوا ابنه، فأرسل إلى الأرمن يأمرهم بإطلاق ابنه وإعادته إلى الملك، فإن فعلوا وإلاّ فقد أذِن له في قصد بلادهم؛ فلمّا بلغتهم الرسالة لم يُطلقوا ولده، فجمع البرنس وقصد بلاد الأرمن، فأرسل الأرمن إلى الأتابك شهاب الدّين بحلب يستنجدونه، ويخوّفونه من البرنس إن استولى على بلادهم لأنّها تجاور أعمال حلب، فأمدّهم بجُندٍ وسلاح.

فلمّا سمع البرِنس ذلك صمّم العزم على قصد بلادهم، فسار إليهم وحاربهم، فلم يحصل على غرض، فعاد عنهم.

حدّثني بهذا رجل من عقلاء النصارى ممّن دخل تلك البلاد وعرف حالها، وسألتُ غيره، فعرف البعض وأنكر البعض[1].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة انخسف القمر مرّتين: أولاهما ليلة رابع عشر صفر[2].

وفيها كانت أُعجوبة[3] بالقرب من الموصل حامّة تُعرف بعين القيّارة، شديدة الحرارة، تسمّيها الناس عين ميمون، ويخرج مع الماء قليل من القار، فكان الناس يسبحون فيها دائماً في الربيع والخريف، لأنّها تنفع من الأمراض الباردة، كالفالج وغيره، نفعاً عظيماً، فكان من يَسبَح فيها يجد الكرب الشديد من حرارة الماء، ففي هذه السنة برد الماء فيها، حتّى كان السابح فيها يجد البرد، فتركوها وانتقلوا إلى غيرها[4].

وفيها كثُرت الذّئاب والخنازير والحيّات، فقُتل كثير، فلقد بلغني أنّ ذئباً دخل الموصِل فقُتل فيها، وحدّثني صديق لنا له بستان بظاهر الموصِل أنه قتل فيه، في سنة اثنتين وعشرين وستّمائة، جميع الصيف حيّتَين، وقتل هذه السنة إلى أوّل حزيران سبع حيّات لكثرتها[5].

---

(١) الخبر باختصار في: المختار من تاريخ ابن الجزري ١٢٩، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٢٣هـ.)، والبداية والنهاية ١٣/ ١١٢.

(٢) المختار من تاريخ ابن الجزري ١٣٠، العسجد المسبوك ٢/ ٤٢٤.

(٣) في الأوروبية: «عجوبة».

(٤) المختار من تاريخ ابن الجزري ١٣٠، العسجد المسبوك ٢/ ٤٢٤.

(٥) المختار من تاريخ ابن الجزري ١٣٠، العسجد المسبوك ٢/ ٤٢٤.

وفيها انقطع المطر بالموصِل وأكثر البلاد الجزريّة من خامس شباط إلى ثاني عشر نيسان، ولم يجرِ شيء يُعتدّ به، لكنّه سقط اليسير منه في بعض القرى، فجاءت الغلّات قليلة، ثمّ خرج الجراد الكثير، فازداد الناس أذًى، وكانت الأسعار قد صلحت شيئاً، فعادت لكثرة الجراد فغلَتْ، ونزل أيضاً في أكثر القرى بَرَدٌ كبير أهلك زروع أهلها وأفسدها، واختلفت أقاويل الناس في أكبره، كان وزن بَرَدة مائتي درهم، وقيل رطل، وقيل غير ذلك، إلاّ أنّه أهلك كثيراً من الحيوان، وانقضت هذه السنة والغلاء باقٍ وأشدّه بالموصِل[1].

وفيها اصطاد صديق لنا أرنباً فرآه وله أُنثيان وذكر وفرج أُنثى، فلمّا شقّوا بطنها رأوا فيها حريفين[2]، سمعتُ هذا منه ومن جماعة كانوا معه، وقالوا: ما زلنا نسمع أنّ الأرنب يكون سنة ذَكَراً وسنة أنثى، ولا نصدّق ذلك، فلمّا رأينا هذا علمنا أنّه قد حمل، وهو أُنثى، وانقضت السنة فصار ذَكَراً، فإن كان كذلك وإلاّ فيكون في الأرنب كالخنثى في بني آدم، يكون لأحدهم فرْج الرجل وفرْج الأنثى[3].

كما أنّ الأرنب تحيض كما تحيض النّساء، فإنّي كنتُ بالجزيرة، ولنا جارٌ له بنت اسمها صفيّة، فبقت كذلك نحو خمس[4] عشرة سنة، وإذا قد طلع لها ذَكَر رجل، ونبتت لحيته، فكان له فرْج امرأة وذَكَر رجل[5].

وفيها ذبح إنسان عندنا رأس غنم، فوجد لحمه مُرّاً شديد المرارة، حتّى رأسه وأكارعه ومعلاقه وجميع أجزائه، وهذا ما لم يُسمع بمثله[6].

---

(١) المختار من تاريخ ابن الجزري ١٣١.

(٢) هكذا هنا، ومثله في: المختار من تاريخ ابن الجزري، وفي تاريخ الإسلام (حوادث ٦٢٣هـ.) «جروين» وعلى هامش النسخة في الأصل: «خرقين»، وفي دول الإسلام ٢/ ١٢٨ وتاريخ الخميس «جروان»، وفي تاريخ ابن سباط: «وفي بطنها جوفان».

(٣) المختار من تاريخ ابن الجزري ١٢٩، ١٣٠، دول الإسلام ٢/ ١٢٨، العسجد المسبوك ٢/ ٤٢٤، وتاريخ الخميس ١٢/ ٤١٢، ٤١٣، تاريخ ابن سباط ١/ ٢٨٧، ٢٨٨، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٢٣هـ.)

(٤) في الأوربية: «خمسة».

(٥) المختار من تاريخ ابن الجزري ١٣٠، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٢٣هـ.)، العسجد المسبوك ٢/ ٤٢٤.

(٦) المختار من تاريخ ابن الجزري ١٣٠، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٢٣هـ.) البداية والنهاية ١٣/ ١١٤، العسجد المسبوك ٢/ ٤٢٤.

وفيها يوم الأربعاء الخامس والعشرين[1] من ذي القعدة، ضحوة النهار، زُلزلت الأرض بالموصل وكثير من البلاد العربيّة والعجميّة، وكان أكثرها بشَهْرَزُور، فإنّها خرب أكثرها، ولا سيّما القلعة، فإنّها أجحفت بها، وخرب من تلك الناحية ستّ قلاع، وبقيت الزلزلة تتردّد فيها نيّفاً وثلاثين يوماً، ثمّ كشفها الله عنهم؛ وأمّا القرى بتلك الناحية فخرب أكثرها[2].

[الوفيات]

وفيها، في رجب، تُوفّي القاضي حجّة الدّين أبو منصور المظفّر بن عبد القاهر[3] بن الحسن بن عليّ بن القاسم الشهرزوريّ، قاضي الموصِل، بها، وكان قد أضرّ قبل وفاته بنحو سنتَيْن، وكان عالماً بالقضاء، عفيفاً، نزهاً، ذا رئاسة كبيرة[4]، وله صلات دارّة للمقيم[5] والوارد، رحمه الله، فلقد كان من محاسن الدّنيا، ولم يُخلّف غير بنت تُوفّيت بعده بثلاثة أشهر.

---

(١) في الأوربية: «والعشرون».

(٢) دول الإسلام ٢/١٢٨، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٢٣هـ.)، المختار من تاريخ ابن الجزري ١٣٠، البداية والنهاية ١٣/١١٤، العسجد المسبوك ٢/٤٢٤، تاريخ الخميس ٢/٤١٣.

(٣) أنظر عن (المظفر بن عبد القاهر) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٢٣هـ.) رقم ٢١٠ وفيه مصادر ترجمته.

(٤) في الأوربية: «كثيرة».

(٥) في الأوربية: «للقيم».

٦٢٤

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة

ذكر دخول الكُرج مدينة تِفلِيس وإحراقها

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، وصل الكُرج مدينة تِفلِيس، ولم يكن بها من العسكر الإسلاميّ مَن يقوم بحمايتها، وسبب ذلك أنّ جلال الدّين لمّا عاد من خِلاط، كما ذكرنا قبلُ، وأوقع بالإيوانيّة، فرّق عساكره إلى المواضع الحارّة الكثيرة المرعى، ليشتّوا بها؛ وكان عسكره قد أساؤوا السيرة في رعيّة تِفلِيس، وهم مسلمون، وعسفوهم، فكاتبوا الكُرج يستدعونهم إليهم ليملّكوهم البلد، فاغتنم الكُرج ذلك لميل أهل البلد إليهم، وخُلُوّه من العسكر، فاجتمعوا، وكانوا بمدينتي قرس وآني وغيرهما من الحصون، وساروا إلى تِفلِيس، وكانت خالية كما ذكرناه، ولأنّ جلال الدّين استضعف الكُرج لكثرة مَن قُتل منهم، ولم يظنّ فيهم حركة، فملكوا البلد، ووضعوا السيف فيمن بقي من أهله، وعلموا أنّهم لا يقدرون على حفظ البلد من جلال الدّين، فأحرقوه جميعه[1].

وأمّا جلال الدّين فإنّه لمّا بلغه الخبر سار فيمن عنده من العساكر ليدركهم، فلم يرَ منهم أحداً، كانوا قد فارقوا تِفلِيس لمّا أحرقوها[2].

ذكر نهب جلال الدّين بلد الإسماعيليّة

في هذه السنة قتل الإسماعيليّة أميراً كبيراً من أمراء جلال الدّين[3]، وكان قد أقطعه جلال الدّين مدينة كَنْجَة وأعمالها، وكان نِعم الأمير، كثيرَ الخير، حسن السيرة،

---

(١) في الأوربية: «فأحرقوها جميعها».

(٢) العسجد المسبوك ٢/٤٢٦.

(٣) اسمه «صبح خان». (سيرة جلال الدين ٢٢٨، العسجد المسبوك ٢/٤٢٧).

ينكر على جلال الدّين ما يفعله عسكره من النهب وغيره من الشرّ.

فلمّا قُتل ذلك الأمير عظُم قتْله على جلال الدّين، واشتدّ عليه، فسار في عساكره إلى بلاد الإسماعيليّة، من حدود ألمُوتَ إلى كردكوه بخُراسان، فخرّب الجميع، وقتل أهلها، ونهب الأموال، وسبى الحريم، واسترقّ الأولاد، وقتل الرجال، وعمل بهم الأعمال العظيمة، وانتقم منهم؛ وكانوا قد عظُم شرّهم وازداد ضرّهم، وطمعوا مذ خرج التتر إلى بلاد الإسلام إلى الآن، فكفّ عاديتهم وقمعهم، ولقّاهم الله ما عملوا بالمسلمين[1].

ذكر الحرب بين جلال الدّين والتتر

لمّا فرغ جلال الدّين من الإسماعيليّة بلغه الخبر أنّ طائفة من التتر عظيمة قد بلغوا إلى دامغان. بالقرب من الرّي، عازمين، على قصد بلاد الإسلام، فسار إليهم وحاربهم، واشتدّ القتال بينهم، فانهزموا منه، فأوسعهم قتلاً، وتبع المنهزمين عدّة أيّام يقتل ويأسر، فبينما هو كذلك قد أقام بنواحي الرّيّ خوفاً من جمع آخر للتتر، إذ أتاه الخبر بأنّ كثيراً منهم واصلون إليه، فأقام ينتظرهم[2]، وسنذكر خبرهم سنة خمسٍ وعشرين وستّمائة.

ذكر دخول العساكر الأشرفيّة إلى أذْرَبِيجان ومُلك بعضها

في هذه السنة، في شعبان، سار الحاجب عليّ حُسام الدّين، وهو النائب عن الملك الأشرف بخِلاط، والمقدّم على عساكرها، إلى بلاد أذْرَبِيجان فيمن عنده من العساكر.

وسبب ذلك أنّ سيرة جلال الدّين كانت جائرة، وعساكره طامعة في الرعايا، وكانت زوجته ابنة السلطان طُغرُل السلجوقيّ، وهي التي كانت زوجة أوزْبك بن البهلوان، صاحب أذْرَبِيجان، فتزوّجها جلال الدّين، كما ذكرناه قبلُ، وكانت مع أوزْبك تحكم في البلاد جميعها، ليس له ولا لغيره معها حُكم.

فلمّا تزوّجها جلال الدّين أهملها ولم يلتفت إليها، فخافته مع ما حُرمته من الحكم والأمر والنهي، فأرسلت هي وأهل خُوَيّ إلى حُسام الدّين الحاجب يستدعونه

---

(١) سيرة جلال الدين ٢٢٨، العسجد المسبوك ٢/ ٤٢٧.

(٢) سيرة جلال الدين ٢٣٢، تاريخ الإسلام (٦٢٤هـ.)، دول الإسلام ٢/ ٩٧، ٩٨، العبر ٥/ ٩٧، المختار من تاريخ ابن الجزري ١٣٧ ـ ١٣٩، البداية والنهاية ١٣/ ١١٧، تاريخ الخميس ٢/ ٤١٤.

ليسلّموا البلاد، فسار ودخل البلاد، بلاد أذْرَبِيجان، فملك مدينة خُوَيّ وما يجاورها من الحصون التي بيد امرأة جلال الدّين، وملك مَرَنْدَ، وكاتبه أهل مدينة نقجوان، فمضى إليهم، فسلّموها إليه، وقويت شوكتهم بتلك البلاد، ولو داموا لملكوها جميعها، وإنّما عادوا إلى خِلاط، واستصحبوا معهم زوجة جلال الدّين ابنة السلطان طُغرُل إلى خِلاط[1]، وسنذكر باقي خبرهم سنة خمسٍ وعشرين [وستّمائة] إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة المعظّم صاحب دمشق ومُلك ولده

في هذه السنة تُوفّي الملك المعظّم عيسى[2] ابن الملك العادل يوم الجمعة سَلْخ ذي القعدة، وكان مرضه دوسنطاريا، وكان مُلكه لمدينة دمشق، من حين وفاة والده الملك العادل، عشر سنين وخمسة أشهر وثلاثة[3] وعشرين يوماً.

وكان عالماً بعدّة علوم، فاضلاً فيها، منها الفقه على مذهب أبي حنيفة، فإنّه كان قد اشتغل به كثيراً، وصار من المتميّزين فيه، ومنها عِلم النحْو، فإنّه اشتغل به أيضاً اشتغالاً زائداً، وصار فيه فاضلاً، وكذلك اللّغة وغيرها، وكان قد أمر أن يُجمع له كتاب في اللغة جامع كبير، فيه كتاب «الصِّحاح» للجوهريّ، ويضاف إليه ما فات «الصحاح» من «التّهذيب» للأرمويّ، و «الجمهرة» لابن دُرَيد، وغيرهما، وكذلك أيضاً أمر بأن يُرتّب «مُسنَد» أحمد بن حَنبَل على الأبواب، ويُردّ كلّ حديث إلى الباب الذي يقتضيه معناه، مثاله: أن يجمع أحاديث الطّهارة، وكذلك يفعل في الصلاة وغيرها من الرقائق، والتّفسير، والغزوات، فيكون كتاباً جامعاً.

وكان قد سمع «المُسْنَد» من بعض أصحاب ابن الحُصَين، ونفق العِلم في سوقه، وقصده العلماء من الآفاق، فأكرمهم، وأجرى عليهم الجرايات الوافرة، وقرّبهم، و [كان] يجالسهم، ويستفيد منهم، ويفيدهم، وكان يرجع إلى علم وصبر على سماع ما يكره، لم يسمع أحد ممّن يصحبه منه كلمة تسوءُه.

وكان حسن الاعتقاد يقول كثيراً: إنّ اعتقادي في الأصول ما سطّره أبو جعفر

---

(١) البداية والنهاية ١٣/ ١١٧، العسجد المسبوك ٢/ ٤٢٧.

(٢) أنظر عن (الملك المعظّم عيسى) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٢٤هـ.) رقم ٢٥٧ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٣) في الأوربية: «وثلاثاً».

الطّحاويّ؛ ووصّى عند موته بأن يُكَفَّن في البياض، ولا يُجعل في أكفانه ثوب فيه ذهب، وأن يُدفن في لحد، ولا يُبنى عليه بناء بل يكون قبره في الصحراء تحت السماء، ويقول في مرضه: لي عند الله تعالى في أمر دِمياط ما أرجو أن يرحمني به.

ولمّا تُوفّي وليَ بعده ابنه داود ويلقّب الملك الناصر، وكان عمره قد قارب عشرين سنة.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة دام الغلاء في ديار الجزيرة، ودامت الأسعار تزيد قليلاً وتنقص قليلاً، وانقطع المطر جميع شباط وعشرة أيّام من آذار، فازداد الغلاء، فبلغت الحنطة كلّ مكّوكين بدينار وقيراطين بالموصل، والشعير كلّ ثلاثة مكاكيك بالموصليّ بدينار وقيراطين أيضاً، وكلّ شيء بهذه السنة في الغلاء[1].

وفيها، في الربيع، قَلّ لحم الغنم بالموصل، وغلا سعره، حتّى بيع كلّ رطل لحم بالبغداديّ بحبّتين بالصَّنجة، وربّما زاد في بعض الأيّام على هذا الثمن[2].

وحكى لي مَن يتولّى بيع الغنم بالمَوصِل أنّهم باعوا يوماً خروفاً واحداً لا غير، وفي بعضها خمسة أرؤس، وفي بعضها ستّة، وأقلّ وأكثر، وهذا ما لم يُسمع بمثله، ولا رأيناه في جميع أعمارنا، ولا حُكي لنا مثله لأنّ الربيع مظنّة رخص اللّحم بها، لأنّ التركمان والأكراد والكيلكان ينتقلون من الأمكنة التي شتّوا بها إلى الزّوزان فيبيعون الغنم رخيصاً.

وكان اللّحم كلّ سنة في هذا الفصل كلّ ستّة أرطال وسبعة بقيراط، صار هذه السنة الرطل بحبّتين.

وفيها عاشر آذار، وهو العشرون من ربيع الأوّل، سقط الثلج بالموصل مرّتين، وهذا غريب جدّاً لم يُسمع بمثله، فأهلك الأزهار التي خرجت كزهر اللوز، والمِشْمِش، والإجاص، والسفرجَل وغيرها، ووصلت الأخبار من العراق جميعه مثل ذلك، فهلكت به أزهارها والثمار، وهذا أعجب من حال ديار الجزيرة والشام فإنّه أشدّ حرّاً من جميعها[3].

---

(١) البداية والنهاية ١١٧/١٣، العسجد المسبوك ٢/ ٤٢٩.

(٢) البداية والنهاية ١١٧/١٣، العسجد المسبوك ٢/ ٤٢٩.

(٣) البداية والنهاية ١١٧/١٣، العسجد المسبوك ٢/ ٤٢٩.

وفيها ظفر جمْعٌ من التُركمان، كانوا بأطراف أعمال حلب، بفارس مشهور من الفرنج الدّاويّة بأنطاكية فقتلوه، فعلم الدّاويّة بذلكَ فساروا وكبسوا التُركمان، فقتلوا منهم وأسروا، وغنموا من أموالهم، فبلغ إلى أتابَك شهاب الدّين المتولّي لأمور حلب، فراسل الفرنج، وتهدّدهم بقصد بلادهم، واتّفق أنّ عسكر حلب قتلوا فارسَيْن كبيرَيْن من الدّاويّة أيضاً، فأذعنوا بالصلح، وردّوا إلى التّركمان كثيراً من أموالهم وحريمهم وأسراهم.

وفيها، في رجب، اجتمع طائفة كثيرة من ديار بكر، وأرادوا الإغارة على جزيرة ابن عمر، وكان صاحب الجزيرة قد قُتل، فلمّا قصدوا بلد الجزيرة اجتمع أهل قرية كبيرة من بلد الجزيرة اسمها سلكون، ولقوهم من ضحوة النهار إلى العصر، وطال القتال بينهم، ثمّ حمل أهل القرية على الأكراد فهزموهم وقتلوا فيهم، وخرجوا ونهبوا ما معهم وعادوا سالمين.

٦٢٥
ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة

ذكر الخُلف بين جلال الدّين وأخيه

في هذه السنة خاف غياث الدّين بن خُوارِزم شاه، وهو أخو جلال الدّين (من أبيه)[١]، [أخاه]، وخافه معه جماعة من الأمراء، واستشعروا منه، وأرادوا الخلاص منه، فلم يتمكّنوا من ذلك إلى أن خرجت التتر، واشتغل بهم جلال الدّين، فهرب غياث الدّين ومَن معه، وقصدوا خُوزستان، وهي من بلاد الخليفة، وأرادوا الدخول في طاعة الخليفة، فلم يمكّنهم النائب بها من الدّخول إلى البلد، مخافةَ أن تكون هذه مكيدة، فبقي هناك، فلمّا طال عليه الأمر فارق خُوزستان وقصد بلاد الإسماعيليّة، فوصل إليهم، واحتمى بهم واستجار بهم.

وكان جلال الدّين قد فرغ من أمر التّتر وعاد إلى تِبريز، فأتاه الخبر وهو بالمَيْدَان يلعب بالكرة أنّ أخاه قد قصد أصفهان، فألقَى الجوكان[٢] من يده، وسار مُجِدّاً، فسمع أنّ أخاه قد قصد الإسماعيليّة ملتجئاً إليهم، ولم يقصد أصفهان، فعاد إلى بلاد الإسماعيليّة لينهب بلادهم إن لم يسلّموا إليه أخاه، وأرسل يطلبه من مقدّم الإسماعيلية، فأعاد الجواب يقول: إنّ أخاك قد قصدنا، وهو سلطان ابن سلطان، ولا يجوز لنا أن نُسلمه، لكن نحن نتركه عندنا ولا نمكّنه أن يأخذ شيئاً من بلادك، ونسألك أن تشفّعني فيه والضمان علينا بما قلنا، ومتى كان منه ما تكره في بلادك، فبلادنا حينئذٍ بين يديك تفعل فيها ما تختار. فأجابهم إلى ذلك، واستحلفهم على الوفاء بذلك، وعاد عنهم وقصد خِلاط[٣]، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

---

(١) من النسخة رقم ٧٤٠.

(٢) الجوكان: هو المحجن أو الصولجان الذي تضرب به الكرة، ويتكوّن من عصا في طرفها عقافة. أنظر: صبح الأعشى ٥/٤٥٨.

(٣) سيرة جلال الدين ٢٤١، العسجد المسبوك ٢/٤٣١، ٤٣٢.

ذكر الحرب بين جلال الدين والتتر

في هذه السنة عاود التتر الخروج إلى الرَّيّ، وجرى بينهم وبين جلال الدّين حروب كثيرة اختلف الناس علينا في عددها، كان أكثرها عليه، وفي الأخير كان الظفر له.

وكانت أوّل حرب بينهم عجائب غريبة، وكان هؤلاء التتر قد سخط ملكهم جِنْكِزْخان على مقدّمهم، وأبعده عنه، وأخرجه من بلاده، فقصد خُراسان، فرآها خراباً، فقصد الرَّيّ ليتغلّب على تلك النواحي والبلاد، فلقيه بها جلال الدّين، فاقتتلوا أشدّ قتال، ثمّ انهزم جلال الدّين وعاد ثمّ انهزم، وقصد أصفهان، وأقام بينها وبين الرَّيّ، وجمع عساكره ومَن في طاعته، فكان فيمن أتاه صاحب بلاد فارس، وهو ابن أتابك سعد ملك بعد وفاة أبيه، كما ذكرناه، وعاد جلال الدّين إلى التتر فلقيهم.

فبينما هم مصطفّون كلّ طائفة مقابل الأخرى انعزل غياث الدّين أخو جلال الدّين فيمن وافقه من الأمراء على مفارقة جلال الدّين، واعتزلوا، وقصدوا جهة ساروا إليها، فلمّا رآهم التتر قد فارقوا العسكر ظنّوهم يريدون أن يأتوهم من وراء ظهورهم ويقاتلونهم من جهتَيْن، فانهزم التتر لهذا الظنّ وتبِعهم صاحب بلاد فارس.

وأمّا جلال الدّين فإنّه لمّا رأى مفارقة أخيه إيّاه ومَن معه من الأمراء ظنّ أنّ التتر قد رجعوا خديعة ليستدرجوه، فعاد منهزماً، ولم يجسر [أن] يدخل أصفهان لئلاّ يحصره التتر، فمضى إلى سُمَيْرَم.

وأمّا صاحب فارس فلمّا أبعد في أثر التتر، ولم ير جلال الدّين ولا عسكره معه، خاف التتر فعاد عنهم.

وأمّا التتر فلمّا لم يروا في آثارهم أحداً يطلبهم وقفوا، ثمّ عادوا إلى أصفهان، فلم يجدوا في طريقهم من يمنعهم، فوصلوا إلى أصفهان فحصروها، وأهلها يظنّون أنّ جلال الدّين قد عُدم، فبينما هم كذلك والتتر يحصرونهم إذ وصل قاصد من جلال الدّين إليهم يعرّفهم سلامته، ويقول: إنّي أدور حتى يجتمع إليّ من سلم من العسكر وأقصدكم ونتّفق أنا وأنتم على إزعاج التتر وترحيلهم عنكم.

فأرسلوا إليه يستدعونه إليهم، ويَعدونه النُّصْرة والخروج معه إلى عدوّه، وفيهم شجاعة عظيمة، فسارَ إليهم، واجتمع بهم، وخرج أهل أصفهان معه، فقاتلوا التتر، فانهزم التتر أقبح هزيمة، وتبِعهم جلال الدّين إلى الرَّيّ يقتل ويأسر، فلمّا أبعدوا عن

الرَّيّ أقام بها، وأرسل إليه ابن جِنْكِزْخان يقول: إنّ هؤلاء ليسوا من أصحابنا، إنّما نحن أبعدناهم عنّا؛ فلمّا أمن جانب جِنْكِزْخان أمِن وعاد إلى أذْرَبِيجان[1].

ذكر خروج الفرنج إلى الشام وعمارة صيدا

وفي هذه السنة خرج كثير من الفرنج من بلادهم، التي هي في الغرب من صَقَلّيَةَ وما وراءها من البلاد، إلى بلادهم التي بالشام: عكّا، وصور، وغيرهما من ساحل الشام، فكثُر جمعهم، وكان قد خرج قبل هؤلاء جمع آخر أيضاً إلاّ أنّهم لم تمكنهم[2] الحركة والشروع في أمر الحرب لأجْل أنّ ملكهم الذي هو المقدّم عليهم هو ملك الألمان، ولَقَبُه أنبرور، قيل: معناه ملك الأمراء، ولأنّ المعظّم كان حيّاً، وكان شهماً شُجاعاً مقداماً، فلمّا تُوفّي المعظّم، كما ذكرناه، ووليَ بعده ابنه وملك دمشق طمع الفرنج، وظهروا من عكّا، وصور، وبيروت، إلى مدينة صيدا، وكانت مناصفة بينهم وبين المسلمين، وسورها خراب، فعمروها، واستولوا عليها.

وإنّما تمّ لهم ذلك بسبب تخريب الحصون القريبة منها، تِبْنِين، وهونِين، وغيرهما. وقد تقدّم ذِكر ذلك قبلُ مستقصى؛ فعظُمت شوكة الفرنج، وقوي طمعهم، واستولى في طريقه على جزيرة قبرس، وملكها، وسار منها إلى عكّا، فارتاع المسلمون لذلك، والله تعالى يخذله وينصر المسلمين بمحمّد وآله؛ ثمّ إنّ ملكهم أنبرور وصل إلى الشام[3].

ذكر مُلك كَيْقُبَاذ أرْزَنكان

وفي هذه السنة ملك علاء الدّين كَيْقُبَاذ بن كَيْخَسرُو بن قَلِج أرسلان، وهو صاحب قونية، وأقصرا، ومَلَطْيَة، وغيرها من بلاد الروم، أرْزَنكان.

وسبب مُلكه إيّاها أنّ صاحبها بَهرام شاه كان قد طال مُلكه لها، وجاوز ستّين سنة، تُوفّي ولم يزل في طاعة قلج أرسلان وأولاده بعده، فلمّا تُوفّي ملك بعده ولده

---

(١) البداية والنهاية ١٣/١٢٢، ١٢٣، العسجد المسبوك ٢/٤٣٢، ٤٣٣.

(٢) في النسخة رقم ٧٤٠ «يمكنهم».

(٣) أنظر خبر الفرنج وصيدا في: التاريخ المنصوري ١٥٦، ومفرّج الكروب ٤/٢٣٣، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٢٥هـ.)، ودول الإسلام ٢/١٣٣، والمختار من تاريخ ابن الجزري ١٤٤، والإعلام والتبيين ٥٤، والبداية والنهاية ١٣/١٢٣، والسلوك ج ١، ق ٢٢٩/١، وشفاء القلوب ٣١، وتاريخ ابن سباط ١/٢٩٤.

علاء الدّين داود شاه، فأرسل إليه كَيْقُبَاذ يطلب منه عسكراً ليسير معه إلى مدينة أَرْزَن الروم ليحصرها، ويكون هو مع العسكر، ففعل ذلك، وسار في عسكره إليه، فلمّا وصل قبض عليه، وأخذ مدينة أَرْزَنكان منه، وله حصن من أمنع الحصون اسمه كماخ، وفيه مستحفظٌ لداود شاه، فأرسل إليه ملك الروم يحصره، فلم يقدر العسكر على القرب منه لعُلُوّه وارتفاعه وامتناعه، فتهدّد داود شاه إن لم يسلّم كماخ، فأرسل إلى نائبه في التسليم، فسلّم القلعة إلى كَيْقُبَاذ.

وأراد كَيْقُبَاذ المسير إلى أَرْزَن الروم ليأخذها وبها صاحبها ابن عمّه طُغرُل شاه بن قَلِج أرسلان، فلمّا سمع صاحبها بذلك أرسل إلى الأمير حسام الدّين عليّ، النائب عن الملك الأشرف بخِلاط، يستنجده، وأظهر طاعة الأشرف، فسار حسام الدّين فيمن عنده من العساكر، وكان قد جمعها من الشام، وديار الجزيرة، خوفاً من ملك الروم، خافوا أنّه إذا ملك أَرْزَن الروم يتعدّى[1]، ويقصد خِلاط، فسار الحاجب حسام الدّين إلى الروم ومنع عنها.

ولمّا سمع كَيْقُبَاذ بوصول العساكر إليها لم يقدم على قصدها، فسار من أَرْزَنكان إلى بلاده، وكان قد أتاه الخبر أنّ الروم الكفّار المجاورين لبلاده قد ملكوا منِه حصناً يسمّى صنوب، وهو من أحصن القلاع، مطلّ على البحر السياه بحر الخَزَر، فلما وصل إلى بلاده سيّر العسكر إليه وحصره برّاً وبحراً، فاستعاده من الروم، وسار إلى أنطاكية ليشتّي بها على عادته[2].

ذكر خروج الملك الكامل

في هذه السنة، في شوّال، سار الملك الكامل محمّد ابن الملك العادل، صاحب مصر، إلى الشام، فوصل إلى البيت المقدّس، حرسه الله تعالى، وجعله دار الإسلام أبداً؛ ثمّ سار عنه، وتولّى بمدينة نابلس، وشحّن على تلك البلاد جميعها، وكانت من أعمال دمشق، فلما سمع صاحبها، وهو ابن الملك المعظّم، خاف أن يقصده ويأخذ دمشق منه، فأرسل إلى عمّه الملك الأشرف يستنجده، ويطلبه ليحضر عنده بدمشق، فسار إليه جريدة، فدخل دمشق.

فلمّا سمع الكامل بذلك لم يتقدّم لعلمه أنّ البلد منيع، وقد صار به مَن يمنعه

---

(١) في الأوربية: «يتعدا».

(٢) تاريخ الإسلام (حوادث ٦٢٥هـ.)، المختار من تاريخ ابن الجزري ١٤٣.

ويحميه؛ وأرسل إليه الملك الأشرف يستعطفه، ويعرّفه أنّه ما جاء إلى دمشق إلاّ طاعة له، وموافقة لأغراضه، والاتّفاق معه على منع الفرنج عن البلاد، فأعاد الكامل الجواب يقول: إنّني ما جئتُ إلى هذه البلاد إلاّ بسبب الفرنج، فإنّهم لم يكن في البلاد من يمنعهم عمّا يريدونه، وقد عمروا صيدا، وبعض قيساريّة، ولم يُمنعوا، وأنت تعلم أنّ عمّنا السلطان صلاح الدّين فتح البيت المقدّس، فصار لنا بذلك الذِّكر الجميل على تقضّي الأعصار وممرّ الأيّام، فإنْ أخذه الفرنج حصل لنا من سوء الذِّكر وقُبح الأحدوثة ما يناقض ذلك الذِّكر الجميل الذي ادّخره عمّنا، وأيّ وجه يبقى لنا عند الناس وعند الله تعالى؟

ثمّ إنّهم ما يقنعون حينئذٍ بما أخذوه، ويتعدّون إلى غيره، وحيث قد حضرت أنت فأنا أعود إلى مصر، واحفظ أنت البلاد، ولستُ بالذي يقال عنّي إني قاتلتُ أخي، وحصرتُه، حاشا لله تعالى.

وتأخّر عن نابلس نحو الدّيار المصريّة، ونزل تلّ العجول، فخاف الأشرف والناس قاطبةً بالشام، وعلموا أنّه إن عاد استولى الفرنج على البيت المقدّس وغيره ممّا يجاوره، لا مانع دونه، فتردّدت الرسل، وسار الأشرف بنفسه إلى الكامل أخيه، فحضر عنده، وكان وصوله ليلة عيد الأضحى، ومنعه من العَود إلى مصر، فأقاما بمكانهما[1].

ذكر نهب جلال الدين بلاد أرمينية

في هذه السنة وصل جلال الدّين خُوارِزم شاه إلى بلاد خِلاط، وتعدّى خِلاط إلى صحراء موش[2]، وجبل جُور، ونهب الجميع، وسبى الحريم، واسترقّ الأولاد، وقتل الرجال، وخرّب القرى، وعاد إلى بلاده.

ولمّا وصل الخبر إلى البلاد الجزريّة: حَرّان وسَرُوج وغيرهما، أنّه قد جاز خِلاط إلى جُور، وأنّه قد قرب منهم، خاف أهل البلاد أن يجيء إليهم، لأنّ الزمان كان شتاء، وظنّوا أنّه يقصد الجزيرة ليشتّي بها، لأنّ البرد بها ليس بالشديد، وعزموا على الانتقال من بلادهم إلى الشام، ووصل بعض أهل سَروج إلى مَنبج من أرض الشام، فأتاهم الخبر أنّه قد نهب البلاد وعاد، فأقاموا، وكان سبب عوده أنّ الثلج سقط

(١) البداية والنهاية ١٣/١٢٣، العسجد المسبوك ٢/٤٣٣، ٤٣٤.

(٢) في العسجد المسبوك: «صخر اموس».

ببلاد خِلاط كثيراً، لم يُعهد مثله، فأسرع العَود[1].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة رخصت الأسعار بديار الجزيرة جميعها، وجاءت الغلاّت التي لهم من الحنطة والشعير جيّداً، إلاّ أنّ الرخص لم يبلغ الأوّل الذي كان قبل الغلاء، إنّما صارت الحنطة كلّ خمسة[2] مكاكيك بدينار، والشعير كلّ سبعة عشر مكوكاً بالموصليّ بدينار[3].

(١) العسجد المسبوك ٢/ ٤٣٤، ٤٣٥.

(٢) في الأوربية: «خمس».

(٣) العسجد المسبوك ٢/ ٤٣٥.

٦٢٦

ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة

ذكر تسليم البيت المقدّس إلى الفرنج

في هذه السنة، أوّل ربيع الآخر، تسلّم الفرنج، لعنهم الله، البيت المقدّس صلحاً، أعاده الله إلى الإسلام سريعاً.

وسبب ذلك ما ذكرناه سنة خمسٍ وعشرين وستّمائة من خروج الأنبرور، ملك الفرنج، في البحر من داخل بلاد الفرنج إلى ساحل الشام، وكانت عساكره قد سبقته، ونزلوا بالساحل، وأفسدوا فيما يجاورهم من بلاد المسلمين، ومضى إليهم، وهم بمدينة صور، طائفة من المسلمين يسكنون الجبال المجاورة لمدينة صور وأطاعوهم، وصاروا معهم، وقوي طمع الفرنج بموت الملك المعظّم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيّوب، صاحب دمشق.

ولمّا وصل الأنبرور إلى الساحل نزل بمدينة عكّا، وكان الملك الكامل، رحمه الله تعالى، ابن الملك العادل، صاحب مصر، قد خرج من الدّيار المصريّة يريد الشام بعد وفاة أخيه المعظّم، وهو نازل بتلّ العُجُول، يريد أن يملك دمشق من الناصر داود ابن أخيه المعظّم، وهو صاحبها يومئذٍ، وكان داود لمّا سمع بقصد عمّه الملك الكامل له قد أرسل إلى عمّه الملك الأشرف، صاحب البلاد الجزريّة، يستنجده، ويطلب منه المساعدة على دفع عمّه عنه، فسار إلى دمشق، وتردّدت الرسل بينه وبين أخيه الملك الكامل في الصلح، فاصطلحا، واتّفقا، وسار الملك الأشرف إلى الملك الكامل واجتمع به.

فلمّا اجتمعا تردّدت الرسل بينهما وبين الأنبرور، ملك الفرنج، دفعات كثيرة، فاستقرّت القاعدة على أن يسلّموا إليه البيت المقدّس ومعه مواضع يسيرة من بلاده، ويكون باقي البلاد مثل الخليل، ونابلس، والغَور، ومَلَطْيَة، وغير ذلك بيد المسلمين،

ولا يسلّم إلى الفرنج إلاّ البيت المقدّس والمواضع التي استقرّت معه.

وكان سور البيت المقدّس خراباً [قد][1] خرّبه الملك المعظّم، وقد [ذكرنا][2] ذلك، وتسلّم الفرنج البيت المقدّس، واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه، ووجدوا له من الوهن والتألّم ما لا يمكن وصفه؛ يسّر الله فتحه وعَوده إلى المسلمين بمنّه وكرمه، آمين[3].

ذكر مُلك الملك الأشرف مدينة دمشق

وفي هذه السنة يوم الاثنين ثاني شعبان ملك الملك الأشرف ابن الملك العادل مدينة دمشق من ابن أخيه صلاح الدّين داود بن المعظّم.

وسبب ذلك ما ذكرناه أنّ صاحب دمشق لمّا خاف من عمّه الملك الكامل أرسل إلى عمّه الأشرف يستنجده، ويستعين به على دفع الكامل عنه، فسار إليه من البلاد الجزريّة، ودخل دمشق، وفرح به صاحبها وأهل البلد، وكانوا قد احتاطوا، وهم يتجهّزون للحصار، فأمر بإزالة ذلك، وترك ما عزموا عليه من الاحتياط، وحلف لصاحبها على المساعدة والحفظ له ولبلاده عليه، وراسل الملك الكامل واصطلحا وظنّ صاحب دمشق أنّه معهما في الصلح.

وسار الأشرف إلى أخيه الكامل، واجتمعا في ذي الحجّة من سنة خمسٍ وعشرين، يوم العيد، وسار صاحب دمشق إلى بَيسان وأقام بها، وعاد الملك الأشرف من عند أخيه، واجتمع هو وصاحب دمشق، ولم يكن الأشرف في كثرة من العسكر، فبينما هما جالسان في خيمة لهما إذ قد دخل عزّ الدّين أيبك، مملوك المعظّم الذي كان صاحب دمشق، وهو أكبر أمير مع ولده، فقال لصاحبه داود: قم اخرج وإلاّ

---

(١) إضافة من النسخة رقم ٧٤٠.

(٢) إضافة من النسخة رقم ٧٤٠.

(٣) أنظر خبر بيت المقدس في: التاريخ المنصوري ١٧٦، ومرآة الزمان ج ٨، ق ٢/ ٤٣١، ٤٣٢، وزبدة الحلب ٣/ ٢٠٥، وذيل الروضتين ١٥٤، ١٥٥، وتاريخ مختصر الدول ٢٤٤، وتاريخ الزمان ٢٧٢، ٢٧٣، ومفرّج الكروب ٤/ ٢٤١ ـ ٢٥١، وأخبار الأيوبيين لابن العميد ١٣٨، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٤١، والدر المطلوب ٢٩٢، ونهاية الأرب ٢٩/ ١٥١، والعبر ٥/ ١٠٤، ١٠٥، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٢٦هـ.)، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٥٠، ومرآة الجنان ٤/ ٥٩، والبداية والنهاية ١٣/ ١٢٣، ومآثر الإنافة ٢/ ٧٩، والعسجد المسبوك ٢/ ٤٣٦، والسلوك ج ١، ق ١/ ٢٣٠، ٢٣١، والنجوم الزاهرة ٦/ ٢٧١، وشفاء القلوب ٣١١، وتاريخ ابن سباط ١/ ٢٩٥.

قُبضَت الساعة؛ فأخرجه، ولم يمكن الأشرف منعه لأنّ أيبك كان قد أركب العسكر الذي لهم جميعه، وكانوا أكثر من الذين مع الأشرف، فخرج داود وسار هو وعسكره إلى دمشق.

وكان سبب ذلك أنّ أيبك قيل له: إنّ الأشرف يريد القبض على صاحبه وأخذ دمشق منه؛ ففعل ذلك، فلمّا عادوا وصلت العساكر من الكامل إلى الأشرف، وسار فنازل دمشق وحصرها، وأقام محاصراً لها إلى أن وصل إليه الملك الكامل، فحينئذٍ اشتدّ الحصار، وعظُم الخَطْب على أهل البلد، وبلغت القلوب الحناجر.

وكان من أشدّ الأمور على صاحبها أنّ المال عنده قليل لأنّ أمواله بالكَرَك، ولوثوقه بعمّه الأشرف لم يحضر منها شيئاً، فاحتاج إلى أن باع حلى نسائه وملبوسهن[1]، وضاقت الأمور عليه، فخرج إلى عمّه الكامل وبذل له تسليم دمشق وقلعة الشّوبك على أن يكون له الكرَك، والغَور، وبَيسان، ونابلس، وأن يُبقي على أيبك قلعة صَرْخَد وأعمالها.

وتسلّم الكامل دمشق، وجعل نائبه بالقلعة إلى أن سلّم إليه أخوه الأشرف حَرّان، والرُّها، والرَّقّة، وسَروج، ورأس عين من الجزيرة، فلمّا تسلّم ذلك سلّم قلعة دمشق إلى أخيه الأشرف، فدخلها، وأقام بها، وسار الكامل إلى الديار الجزريّة فقام بها إلى أن استدعى أخاه الأشرف بسبب حضر جلال الدّين ابن خُوارِزم شاه مدينة خِلاط، فلمّا حضر عنده بالرَّقّة عاد الكامل إلى ديار مصر، وأمّا الأشرف فكان منه ما نذكره، إن شاء الله تعالى[2].

ذكر القبض على الحاجب عليّ وقتله

وفي هذه السنة أرسل الملك الأشرف مملوكه عزّ الدّين أيبك، وهو أمير كبير في دولته، إلى مدينة خِلاط، وأمره بالقبض على الحاجب حسام الدّين عليّ بن حمّاد،

---

(١) في الأوربية: «وملبوسهم».

(٢) أنظر خبر الملك الأشرف ودمشق في: مرآة الزمان ج ٨، ق ٢/ ٦٥٤، وذيل الروضتين ١٥٤، ومفرّج الكروب ٤/٢٥٢، ٢٥٣، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٤٢، وأخبار الأيوبيين ١٣٨، والدر المطلوب ٢٩٢، ونهاية الأرب ٢٩/ ١٥٣ ـ ١٥٥، ودول الإسلام ٢/ ١٣٣، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٢٦هـ.)، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٥٠، ومرآة الجنان ٤/ ٥٩، والبداية والنهاية ١٣/ ١٢٤، والسلوك ج ١، ق ١/ ٢٣٤، وتاريخ ابن سباط ١/ ٢٩٥.

وهو المتولّي لبلاد خِلاط والحاكم فيها من قِبَل الأشرف.

ولم نعلم شيئاً يوجب القبض عليه، لأنّه كان مشفقاً عليه، ناصحاً له، حافظاً لبلاده، وحسن السيرة مع الرعيّة، ولقد وقف هذه المدّة الطويلة في وجه خُوارزم شاه جلال الدّين، وحفظ خِلاط حفظاً يعجز غيره عنه، وكان مُهتمّاً بحفظ بلاده، وذابّاً عنها، وقد تقدّم من ذكر قصده بلاد جلال الدّين والاستيلاء على بعضها ما يدلّ على همّة عالية، وشجاعة تامّة، وصار لصاحبه به منزلة عظيمة، فإنّ الناس يقولون: بعض غلمان الملك الأشرف يقاوم خُوارزم شاه.

وكان، رحمه الله، كثير الخير والإحسان لا يمكّن أحداً من ظلم، وعمل كثيراً من أعمال البرّ، من الخانات في الطرق، والمساجد في البلاد، وبنى بخِلاط بيمارستاناً وجامعاً، وعمل كثيراً من الطرق، وأصلحُها كان يشقّ سلوكها.

فلمّا وصل أيبك إلى خِلاط قبض عليه، ثمّ قتلة غيلة، لأنّه كان عدوّه، ولمّا قُتل ظهر أثر كفايته، فإن جلال الدّين حصر خِلاط بعد قبضه وملكها، على ما نذكره، إن شاء الله، ولم يمهل الله أيبك بل انتقم منه سريعاً، فإنّ جلال الدّين أخذ أيبك أسيراً لمّا ملك خِلاط مع غيره من الأمراء، فلمّا اصطلح الأشرف وجلال الدّين أطلق الجميع، وذكر أنّ أيبك قُتل.

وكان سبب قتله أنّ مملوكاً للحاجب عليّ كان قد هرب إلى جلال الدّين، فلمّا أسر أيبك طلبه ذلك المملوك من جلال الدّين ليقتله بصاحبه الحاجب عليّ، فسلّمه إليه فقتله، وبلغني أنّ الملك الأشرف رأى في المنام كأنّ الحاجب عليّاً قد دخل إلى مجلس فيه أيبك فأخذ منديلاً وجعله[1] في رقبة أيبك وأخذه وخرج، فأصبح الملك الأشرف وقال: قد مات أيبك، فإنّي رأيتُ في المنام كذا وكذا[2].

ذكر مُلك الكامل مدينة حماة

وفي هذه السنة، أواخر شهر رمضان، ملك الملك الكامل مدينة حماة. وسبب ذلك أنّ الملك المنصور محمّد بن تقيّ الدّين عمر، وهو صاحب حماة، تُوفّي، على ما نذكره، ولمّا حضرتْه الوفاة حلّف الجُند وأكابر البلد لولده الأكبر، ويلقّب بالملك المظفّر، وكان قد سيّره أبوه إلى الملك الكامل، صاحب مصر، لأنّه كان قد تزوّج

---

(١) في الأوربية: «وجعلها».

(٢) العسجد المسبوك ٢/٤٣٧ (باختصار).

بابنته، وكان لمحمّد ولد آخر اسمه قَلِج أرسلان، ولَقَبُه صلاح الدّين، وهو بدمشق، فحضر إلى مدينة حماة فسُلّمت إليه، واستولى على المدينة وعلى قلعتها، فأرسل الملك [الكامل] يأمره أن يسلّم البلد إلى أخيه الأكبر، فإنّ أباه أوصى له به، فلم يفعل، وتردّدت الرسل في ذلك إلى الملك المعظّم، صاحب دمشق، فلم تقع الإجابة.

فلمّا تُوفي المعظّم، وخرج الكامل إلى الشام وملك دمشق، سيّر جيشاً إلى حماة فحصرها ثالث شهر رمضان، وكان المقدّم على هذا الجيش أسد الدّين شيركوه، صاحب حمص، وأميرٌ كبير من عسكره يقال له فخر الدّين عثمان، ومعهما ولد محمّد بن تقيّ الدّين محمّد الذي كان عند الكامل، فبقي الحصار على البلد عدّة أيّام.

وكان الملك الكامل قد سار عن دمشق ونزل على سَلَمِيّة يريد العبور إلى البلاد الجزريّة، حَرّان وغيرها، فلمّا نازلها قصده صاحب حَماة صلاح الدّين، ونزل إليه من قلعته، ولم يكن لذلك سببٌ إلاّ أمْر الله تعالى، فإنّ صلاح الدّين قال لأصحابه: أريد النزول إلى الملك الكامل؛ فقالوا له: ليس بالشام أحصن من قلعتك، وقد جمعتَ من الذّخائر ما لا حدّ له، فلأيّ شيء تنزل إليه؟ ليس هذا برأي؛ فأصرّ على النزول، وأصرّوا على منعه، فقال في آخر الأمر: اتركوني أنزل، وإلاّ ألقيتُ نفسي من القلعة؛ فحينئذٍ سكتوا عنه، فنزل في نفرٍ يسير، ووصل إلى الكامل، فاعتقله إلى أن سلّم مدينة حماة وقلعتها إلى أخيه الأكبر الملك المظفّر، وبقي بيده قلعة بارين، فإنّها كانت له، وكان هو كالباحث عن حتفه بظلفه[1].

ذكر حصر جلال الدين خِلاط ومُلكها

وفي هذه السنة، أوائل شوّال، حصر جلال الدّين خُوارزم شاه مدينة خِلاط، وهي للملك الأشرف، وبها عسكره، فامتنعوا بها، وأعانهم أهل البلد خوفاً من جلال الدّين لسوء سيرته، وأسرفوا في الشتم والسَّفَه، فأخذه اللّجاج معهم، وأقام عليهم جميع الشتاء محاصراً، وفرّق كثيراً من عساكره في القرى والبلاد القريبة من شدّة البرد وكثرة الثلج، فإنّ خِلاط من أشدّ البلاد بَرداً وأكثرها ثلجاً.

وأبان جلال الدّين عن عزم قويّ، وصبْر تَحار العقول منه، ونصب عليها عدّة مجانيق، ولم يزل يرميها بالحجارة حتّى خرّبت بعض سورها، فأعاد أهل البلد

---

(١) أنظر خبر حماه في: مفرّج الكروب ٤/٢٦٧ ـ ٢٧٦، ونهاية الأرب ٢٩/١٥٦، ١٥٧.

عمارته، ولم يزل مصابرهم وملازمهم إلى أواخر جُمادى الأولى من سنة سبع وعشرين [وستّمائة]، فزحف إليها زحفاً متتابعاً وملكها عَنوةً وقهراً يوم الأحد الثامن والعشرين من جُمادى الأولى، سلّمها إليه بعض الأمراء غدراً.

فلمّا ملك البلد صعِد مَن فيه من الأمراء إلى القلعة التي لها وامتنعوا بها، وهو منازلهم، ووضع السيف في أهل [البلد]، وقتل من وجد به منهم، وكانوا قد قلّوا، فإنّ بعضهم فارقوه خوفاً، وبعضهم خرج منه من شدّة الجوع، وبعضهم مات من القلّة وعدم القوت، فإنّ الناس في خِلاط أكلوا الغنم، ثمّ البقر، ثمّ الجواميس، ثمّ الخيل، ثمّ الحمير، ثمّ البغال والكلاب والسنانير، وسمعنا أنّهم كانوا يصطادون الفأر ويأكلونه، وصبروا صبراً لم يلحقهم فيه أحد.

ولم يملك من بلاد خِلاط غيرها، وما سواها من البلاد لم يكونوا ملكوه، وخرّبوا[1] خِلاط، وأكثروا القتل فيها، ومن سلم هرب في البلاد، وسبوا الحريم، واسترقّوا الأولاد، وباعوا الجميع، فتمزّقوا كلّ ممزّق، وتفرّقوا في البلاد، ونهبوا الأموال، وجرى على أهلها ما لم يَسمع بمثله أحد، لا جَرَم لم يمهله الله تعالى، وجرى عليه من الهزيمة بين المسلمين والتتر ما نذكره إن شاء الله تعالى[2].

ذكر عدّة حوادث

في أواخر هذه السنة قصد الفرنج حصن بارين بالشام، ونهبوا بلاده، وأعماله، وأسروا وسَبوا، ومن جملة مَن ظفروا به طائفة كثيرة من التّركمان، فأخذوا الجميع، ولم يسلم منهم إلاّ النّادر الشاذّ[3]، والله أعلم.

---

(1) في النسخة رقم ٧٤٠ «وجزيرة».

(2) أنظر خبر جلال الدين وخلاط في: التاريخ المنصوري ١٨٣ ـ ١٨٦، ومفرّج الكروب ٤/ ٢٨٠، ٢٨١، وزبدة الحلب ٣/ ٢٠٨، وتاريخ مختصر الدول ٢٤٥، وتاريخ الزمان ٢٧٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٤٥، ونهاية الأرب ٢٩/ ٢٨٥، والعبر ٥/ ١٠٥، ودول الإسلام ٢/ ١٣٣، وتاريخ الإسلام (٦٢٦هـ.)، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٥١، والعسجد المسبوك ٢/ ٤٣٧، وتاريخ الخميس ٢/ ٤١٤، والسلوك ج ١، ق ١/ ٢٣٦، وتاريخ ابن سباط ١/ ٢٩٩.

(3) في مفرّج الكروب ٤/ ٢٧٩ «إلا النادر والشارد».

٦٢٧

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة

ذكر انهزام جلال الدين من كَيْقُبَاذ والأشرف

في هذه السنة، يوم السبت الثامن والعشرين من رمضان، انهزم جلال الدّين بن خُوارزم شاه من عبد الله بن كَيْقُبَاذ بن كَيْخَسْرو بن قَلِج أرسلان، صاحب بلاد الروم، قونية، وأقصرا، وسِيواس، ومَلَطْيَة، وغيرها؛ ومن الملك الأشرف، صاحب دمشق وديار الجزيرة وخِلاط.

وسبب ذلك أنّ جلال الدّين كان قد أطاعه صاحب أرْزَن الروم، وهو ابن عمّ علاء الدّين، ملك الروم، وبينه وبين ملك الروم عداوة مستحكمة، وحضر صاحب أرْزَن الروم عند جلال الدّين على خِلاط، وأعانه على حصرها، فخافهما علاء الدّين، فأرسل إلى الملك الكامل، وهو حينئذٍ بحَرّان، يطلب منه أن يُحضر أخاه الأشرف من دمشق، فإنّه كان مقيماً بها بعد أن ملكها.

وتابع علاء الدّين الرسل بذلك خوفاً من جلال الدّين، فأحضر الملك الكامل أخاه الأشرف من دمشق، فحضر عنده، ورسل علاء الدّين إليهما متتابعة، يحثّ الأشرف على المجيء إليه والاجتماع به، حتّى قيل إنّه في يوم واحد وصل إلى الكامل والأشرف من علاء الدّين خمسة رُسُل، ويطلب[1] مع الجميع وصول الأشرف إليه ولو وحده، فجمع عساكر الجزيرة والشام وسار إلى علاء الدّين، فاجتمعا بسِيواس، وسارا نحو خِلاط؛ فسمع جلال الدّين بهما، فسار إليهما مُجِدّاً في السير، فوصل إليهما بمكان يُعرف بياسي حمار[2]، وهو من أعمال أرْزنجان، فالتقوا هناك.

---

(١) في الأوربية: «وبطلب».

(٢) في النسخة رقم ٧٤٠ «حماك».

وكان مع علاء الدّين خلق كثير، قيل: كانوا عشرين ألف فارس، وكان مع الأشرف نحو خمسة آلاف فارس، إلاّ أنّهم من العساكر الجيّدة الشجعان، لهم السلاح الكثير، والدّوابّ الفارهة من العربيّات، وكلّ منهم قد جرّب الحرب. وكان المقدّم عليهم أمير من أمراء عساكر حلب يقال له عزّ الدّين عُمر بن عليّ، وهو من الأكراد الهَكّاريّة، ومن الشجاعة في الدّرجة العليا، وله الأوصاف الجميلة والأخلاق الكريمة.

فلمّا التقوا بهت جلال الدّين لما رأى من كثرة العساكر، ولا سيّما لمّا رأى عسكر الشام، فإنّه شاهد من تجمّلهم، وسلاحهم، ودوابّهم ما ملأ صدره رُعباً، فأنشب عزّ الدّين بن عليّ القتال، ومعه عسكر حلب، فلم يقم لهم جلال الدّين ولا صبر، ومضى منهزماً هو وعسكره، وتمزّقوا لا يلوي الأخ على أخيه، وعادوا إلى خِلاط فاستصحبوا معهم من فيها من أصحابهم، وعادوا إلى أذْرَبِيجان فنزلوا عند مدينة خُويّ، ولم يكونوا قد استولوا على شيء من أعمال خِلاط سوى خِلاط، ووصل الملك الأشرف إلى خِلاط وقد استصحبوا معهم من فيها فبقيت خاوية على عروشها، خالية من الأهل والسكّان، قد جرى عليهم ما ذكرناه قبل[1].

ذكر مُلك علاء الدّين أرْزَن الروم

قد ذكرنا أنّ صاحب أرْزَن الروم كان مع جلال الدّين على خِلاط، ولم يزل معه، وشهد معه المصافّ المذكور، فلمّا انهزم جلال الدّين أخذ صاحب أرْزَن الروم أسيراً، فأُحضر عند علاء الدّين كَيْقُبَاذ ابن عمّه، فأخذه، وقصد أرْزَن الروم، فسلّمها صاحبها إليه هي وما يتبعها من القلاع والخزائن وغيرها، فكان كما قيل: خرجت النّعامة تطلب قرنين، فعادت بلا أُذنَيْن.

وهكذا هذا المسكين جاء إلى جلال الدّين يطلب الزيادة، فوعده بشيء من بلاد علاء الدّين، فأُخذ ماله وما بيديه من البلاد وبقي أسيراً، فسبحان من لا يزول مُلكه[2].

---

(١) أنظر خبر انهزام جلال الدين في: التاريخ المنصوري ٢٠١، ومرآة الزمان ج ٨، ق ٦٥٩/٢ ـ ٦٦١، ومفرّج الكروب ٢٩٧/٤ ـ ٢٩٩، وتاريخ مختصر الدول ٢٤٥، ٢٤٦، وتاريخ الزمان ٢٧٥، وأخبار الأيوبيين لابن العميد ١٣٩، والمختصر في أخبار البشر ١٤٦/٣، والدرّ المطلوب ٢٩٩، ودول الإسلام ١٢٤/٢، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٢٧هـ.)، والعبر ١٠٧/٥، ١٠٨، وتاريخ ابن الوردي ١٥٣/٢، ومرآة الجنان ٦٤/٤، ونهاية الأرب ١٦٢/٢٩، ١٦٣، والبداية والنهاية ١٢٧/١٣، والعسجد المسبوك ٤٤١/٢، والسلوك ج ١، ق ٢٣٨/١، وتاريخ ابن سباط ٢٩٩/١.

(٢) سيرة جلال الدين ٣٢٣، العسجد المسبوك ٤٤١/٢، مفرّج الكروب ٣٠٠/٤.

ذكر الصُّلح بين الأشرف وعلاء الدّين وبين جلال الدّين

لمّا عاد الأشرف إلى خِلاط، ومضى جلال الدّين منهزماً إلى خُوَيّ، تردّدت الرسل بينهما، فاصطلحوا كلّ منهم على ما بيده، واستقرّت القواعد على ذلك، وتحالفوا، فلمّا استقرّ الصلح وجرت الأَيمان عاد الأشرف إلى سِنجار، وسار منها إلى دمشق، فأقام جلال الدّين ببلاده من أذْرَبِيجان إلى أن خرج عليه التتر[1]، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر مُلك شهاب الدّين غازي مدينة أرْزَن

كان حسام الدّين صاحب مدينة أرْزَن من ديار بكر لم يزل مصاحباً للملك الأشرف، مشاهداً جميع حروبه وحوادثه، وينفق أمواله في طاعته، ويبذل نفسه وعساكره في مساعدته، فهو يُعادي أعداءه، ويوالي أولياءه.

ومن جملة موافقته أنّه كان في خِلاط لمّا حصرها جلال الدّين، فأسره جلال الدّين، وأراد أن يأخذ منه مدينة أرْزَن، فقيل له: إنّ هذا من بيت قديم عريق في المُلك، وإنّه ورث أرْزَن هذه من أسلافه، وكان لهم سواها من البلاد فخرج الجميع من أيديهم؛ فعطف عليه ورقّ له، وأبقى عليه مدينته، وأخذ عليه العهود والمواثيق أنّه لا يقاتله.

فلمّا جاء الملك الأشرف وعلاء الدّين محاربين لجلال الدّين لم يحضر معهم في الحرب، فلمّا انهزم جلال الدّين سار شهاب الدّين غازي ابن الملك العادل، وهو أخو الأشرف، وله مدينة ميّافارقين، ومدينة حاني، وهو بمدينة أرْزَن، فحصره بها، ثمّ ملكها صلحاً، وعوّضه عنها بمدينة حاني من ديار بكر[2].

وحسام الدّين هذا نِعم الرجل، حسن السيرة، كريم، جوادٌ، لا يخلو بابه من جماعة يرِدون إليه يستمنحونه، وسيرته جميلة في ولايته ورعيّته، وهو من بيت قديم يقال له[3] بيت طُغان أرسلان، كان له مع أرْزَن بَدليس وَوَسْطَان وغيرهما، ويقال لهم بيت الأحدب، وهذه[4] البلاد معهم من أيّام ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقيّ، فأخذ

(١) مفرّج الكروب ٤/٣٠٠، ٣٠١، العسجد المسبوك ٢/٤٤١.

(٢) مفرّج الكروب ٤/٣٠١، ٣٠٢، سيرة جلال الدين ٣٢٣، العسجد المسبوك ٢/٤٤١.

(٣) في الأوربية: «لهم».

(٤) في الأوربية: «ولهذه».

بكتمر صاحب خِلاط منهم بدليس، أخذها من عمّ حسام الدّين هذا، لأنّه كان موافقاً لصلاح الدّين يوسف بن أيّوب، فقصده بكتمر لذلك، وبقيت أرْزَن بيد هذا إلى الآن، فأُخذت منه، ولكلّ أوّلٍ آخِرٌ، فسبحان من لا أوّل له ولا آخر لبقائه[١].

ذكر مُلك سونج قشيالوا قلعة رويندز

وفي هذه السنة ظهر أمير من أمراء التركمان اسمه سونج[٢]، ولَقَبُه شمس الدّين، واسم قبيلته قشيالوا، وقوي أمره، وقطع الطريق، وكثُر جمعه، وكان بين إربِل وهَمَذان، وهو ومَن معه يقطعون الطريق، ويفسدون في الأرض، ثمّ إنّه تعدّى إلى قلعة منيعة اسمها سارو، وهي لمظفّر الدّين، من أعمال إرْبِل، فأخذها وقتل عندها أميراً كبيراً من أمراء مظفّر الدّين، فجمع مظفّر الدّين، وأراد استعادتها منه، فلم يمكنه لحصانتها، ولكثرة الجموع مع هذا الرجل، فاصطلحا على ترك القلعة بيده.

وكان عسكر لجلال الدّين بن خُوارِزم شاه يحصرون قلعة رُويَنْدِز[٣]، وهي من قلاع أذْرَبيجان، من أحصن القلاع وأمنعها، لا يوجد مثلها، وقد طال الحصار على مَن بها فأذعنوا بالتسليم، فأرسل جلال الدّين بعض خواصّ أصحابه وثقاته ليتسلّمها، وأرسل معه الخِلع والمال لمن بها، فلمّا صعِد ذلك القاصد إلى القلعة وتسلّمها أعطى بعض مَن بالقلعة، ولم يُعط البعض واستذلّهم وطمع فيهم حيث استولى على الحصن، فلمّا رأى مَن لم يأخذ شيئاً من الخِلع والمال ما فعل بهم أرسلوا إلى سونج يطلبونه ليسلّموا إليه القلعة، فسار إليهم في أصحابه فسلّموها إليه، فسبحان مَن إذا أراد أمراً سهّله.

قلعة رُويَنْدِز هذه لم تزل تتقاصر عنها قدرة أكابر الملوك وعظمائهم من قديم الزّمان وحديثه، وتُضرب الأمثال بحصانتها، لمّا أراد الله سبحانه وتعالى أن يملكها هذا الرجل الضعيف سهّل له الأمور، فملكها بغير قتال ولا تعب، وأزال عنها أصحاب مثل جلال الدّين الذي كلّ ملوك الأرض تهابه وتخافه، وكان أصحاب جلال الدّين، كما قيل: رُبّ ساعٍ لقاعِدٍ.

فلمّا ملكها سونج طمع في غيرها، ولا سيّما مع اشتغال جلال الدّين بما أصابه

---

(١) مفرّج الكروب ٤/ ٣٠٢.

(٢) في العسجد المسبوك ٢/ ٤٤١ «صونج» والمثبت يتفق مع: مفرّج الكروب.

(٣) في العسجد المسبوك ٢/ ٤٤١ «روندز» والمثبت يتفق مع: مفرّج الكروب.

من الهزيمة ومجيء التتر، فنزل من القلعة إلى مَراغة، وهي قريب منها، فحصرها، فأتاه سهم غَرْب فقتله، فلمّا قُتل ملك [قلعة] رُويَندِز أخوه، ثمّ إنّ هذا الأخ الثاني نزل من القلعة، وقصد أعمال تِبرِيز ونهبها، وعاد إلى القلعة ليجعل فيها من ذلك النهب والغنيمة ذخيرة خوفاً من التتر، وكانوا قد خرجوا، فصادفه طائفة من التتر، فقتلوه وأخذوا ما معه من النهب؛ ولمّا قُتل ملك القلعة ابن أخت له، وكان هذا جميعه في مدّة سنتين[1]، فأُفٍّ لدنيا لا تزال تُتبع فرحة بترحة، وكلّ حسنةٍ بسيّئة.

(١) مفرّج الكروب ٤/٣٠٦ ـ ٣٠٨، العسجد المسبوك ٢/٤٤١، ٤٤٢.

٦٢٨
ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة

ذكر خروج التتر إلى أذْرَبِيجان وما كان منهم

في هذه السنة وصل التتر من بلاد ما وراء النهر إلى أذْرَبِيجان، وقد ذكرنا قبلُ كيف ملكوا ما وراء النهر، وما صنعوه بخُراسان وغيرها من البلاد، من النهب، والتّخريب، والقتل، واستقرّ ملكهم بما وراء النهر، وعادت بلاد ما وراء النهر فانعمرت، وعمروا مدينة تقارب مدينة خُوارزم عظيمة، وبقيت مُدن خُراسان خراباً لا يجسر أحد من المسلمين [أن] يسكنها.

وأمّا التتر فكانوا تغير كلّ قليل طائفة منهم ينهبون ما يرونه بها، فالبلاد خاوية على عروشها، فلم يزالوا كذلك إلى أن ظهر منهم طائفة سنة خمسٍ وعشرين [وستّمائة]، فكان بينهم وبين جلال الدّين ما ذكرناه، وبقوا كذلك، فلمّا كان الآن، وانهزم جلال الدّين من علاء الدّين كَيْقُبَاذ ومن الأشرف، كما ذكرناه سنة سبع وعشرين [وستّمائة]، أرسل مقدّم الإسماعيليّة الملاحدة إلى التتر يعرّفهم ضعف جلال الدّين بالهزيمة الكائنة عليه، ويحثّهم على قصده عقيب الضعف، ويضمن لهم الظَّفَر به للوهْن الذي صار إليه.

وكان جلال الدّين سَيِّء السيرة، قبيح التّدبير لملكه، لم يترك أحداً من الملوك المجاورين له إلاّ عاداه، ونازعه المُلك، وأساء مجاورته، فمن ذلك أنّه أوّل ما ظهر في أصفهان وجمع العساكر قصد خُوزستان، فحصر مدينة ششتر، وهي للخليفة، وسار إلى دَقُوقا فنهبها، وقتل فيها فأكثر، وهي للخليفة أيضاً، ثمّ ملك أذْرَبِيجان، وهي لأوزبك، وقصد الكُرج وهزمهم وعاداهم، ثمّ عادى الملك الأشرف، صاحب خِلاط، ثمّ عادى علاء الدّين، صاحب بلاد الروم، وعادى الإسماعيليّة، ونهب بلادهم، وقتل فيهم فأكثر، وقرّر عليهم وظيفة من المال كلّ سنة، وكذلك غيرهم، فكلّ من الملوك تخلّى عنه، ولم يأخذ بيده.

فلمّا وصلت كتب مقدّم الإسماعيليّة إلى التتر يستدعيهم إلى قصد جلال الدّين بادر طائفة منهم فدخلوا بلادهم واستولوا على الرّيّ وهَمَذان وما بينهما من البلاد، ثمّ قصدوا أذْرَبِيجان فخرّبوا ونهبوا وقتلوا مَن ظفروا به من أهلها، وجلال الدّين لا يقدم على أن يلقاهم، ولا يقدر أن يمنعهم عن البلاد، قد مُلىء رعباً وخوفاً، وانضاف إلى ذلك أنّ عسكره اختلفوا عليه، وخرج وزيره عن طاعته في طائفة كثيرة من العسكر.

وكان السبب غريباً أظهر من قلّة عقل جلال الدّين ما لم يُسمع بمثله، وذلك أنّه كان له خادم خصيّ، وكان جلال الدّين يهواه، واسمه قلج، فاتّفق أنّ الخادم مات، فأظهر من الهلع والجزع عليه ما لم يُسمع بمثله، ولا لمجنون ليلى، وأمر الجُند والأمراء أن يمشوا في جنازته رجّالة، وكان موته بموضع بينه وبين تِبرِيز عدّة فراسخ، فمشى الناس رجّالة، ومشى بعض الطريق راجلاً، فألزمه أمراؤه ووزيره بالركوب، فلمّا وصل إلى تِبرِيز أرسل إلى أهل البلد، فأمرهم بالخروج عن البلد لتلقّي تابوت الخادم، ففعلوا، فأنكر عليهم حيث لم يُبعدوا، ولم يُظهروا من الحزن والبكاء أكثر ممّا فعلوا، وأراد معاقبتهم على ذلك فشفع فيهم أمراؤه فتركهم.

ثمّ لم يُدفن ذلك الخصيّ، وإنّما يستصحبه معه حيث سار، وهو يلطم ويبكي، فامتنع من الأكل والشرب، وكان إذا قُدّم له طعام يقول: احملوا من هذا إلى فلان، يعني الخادم، ولا يتجاسر أحد [أن] يقول إنّه مات، فإنّه قيل له مرّة إنّه مات، فقتل القائل له ذلك، إنّما كانوا يحملون إليه الطعام، ويعودون فيقولون: إنّه يقبّل الأرض ويقول: إنّني الآن أصلح ممّا كنتُ؛ فلحِق أمراءه من الغيظ والأنفة من هذه الحالة ما حملهم على مفارقة طاعته والانحياز عنه مع وزيره، فبقي حَيران لا يدري ما يصنع، ولا سيّما لمّا خرج التتر، فحينئذ دُفن الغلام الخصيّ، وراسل الوزير واستماله وخدعه إلى أن حضر عنده، فلمّا وصل إليه بقي أيّاماً وقتله جلال الدّين، وهذه نادرة غريبة لم يُسمع بمثلها[1].

ذكر مُلك التتر مَراغة

وفي هذه السنة حصر التتر مَراغة من أذْرَبِيجان، فامتنع أهلها، ثمّ أذعن أهلها بالتسليم على أمان طلبوه، فبذلوا لهم الأمان، وتسلّموا البلد وقتلوا فيه إلاّ أنّهم لم

---

(١) سيرة جلال الدين ٣٨٤ وما بعدها، مفرّج الكروب ٤/ ٣١٤ ـ ٣١٦، العسجد المسبوك ٢/ ٤٤٣، ٤٤٤، البداية والنهاية ١٣/ ١٢٨.

يُكثروا القتل وجعلوا في البلد شِحنة، وعظُم حينئذٍ شأن التتر، واشتدّ خوف الناس منهم بأذْرَبِيجان[1]، **فالله تعالى ينصر الإسلام والمسلمين نصراً من عنده، فما نرى في ملوك الإسلام مَن له رغبة في الجهاد، ولا في نصرة الدّين، بل كلّ منهم مُقبلٌ على لهوه ولعبه وظُلم رعيّته، وهذا أخوف عندي من العدوّ، وقال الله تعالى: ﴿واتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾**[2].

ذكر وصول جلال الدّين إلى آمِد وانهزامه عندها وما كان منه

لمّا رأى جلال الدّين ما يفعله التتر في بلاد أذْرَبِيجان، وأنّهم مقيمون بها يقتلون، وينهبون، ويأسرون، ويخرّبون البلاد، ويجبون الأموال، وهم عازمون على قصده، ورأى ما هو عليه من الوَهن والضعف، فارق أذْرَبِيجان إلى بلاد خِلاط، وأرسل إلى النائب بها عن الملك الأشرف يقول له: ما جئنا للحرب ولا للأذى، إنّما خوف هذا العدوّ حملنا على قصد بلادكم.

وكان عازماً على أن يقصد ديار بكر والجزيرة، ويقصد باب الخليفة يستنجده وجميع الملوك على التتر، ويطلب منهم المساعدة على دفعهم، ويحذرهم عاقبة إهمالهم، فوصل إلى خِلاط، فبلغه أنّ التتر يطلبونه، وهم مُجِدّون في أثره، فسار إلى آمِد، وجعل له اليَزَك في عدّة مواضع خوفاً من البيات، فجاءت طائفة من التتر يقصُّون أثره، فوصلوا إليه وهم على غير الطريق الذي فيه اليَزَك، فأوقعوا به ليلاً وهو بظاهر مدينة آمِد، فمضى منهزماً على وجهه، وتفرّق مَن معه من العسكر وتمزّقوا في كلّ وجه، فقصد طائفة من عسكره حَرّان، فأوقع بهم الأمير صواب ومن معه من عسكر الكامل بحرّان، فأخذوا ما معهم من مال، وسلاح، ودوابّ، وقصد طائفة منهم نَصِيبين، والمَوصِل، وسِنجار، وإرْبِل وغير ذلك من البلاد، فتخطّفهم الملوك والرعايا، وطمع فيهم كلّ أحد، حتّى الفلاّح، والكرديّ، والبدويّ، وغيرهم، وانتقم منهم وجازاهم على سوء صنيعهم، وقبيح فعلهم في خِلاط وغيرها، وبما سعوا في الأرض من الفساد، والله لا يحبّ المفسدين، فازداد جلال الدّين ضعفاً إلى ضعفه، ووهْناً إلى وهْنه بمن تفرّق من عسكره، وبما جرى عليهم.

فلمّا فعل التتر بهم ذلك، ومضى منهزماً منهم، دخلوا ديار بكر في طلبه، لأنّهم

---

(1) مفرّج الكروب ٤/ ٣٢٠.

(2) سورة الأنفال، الآية ٢٥.

لم يعلموا أين قصد، ولا أيّ طريق سلك، فسبحان من بدّل أمنهم خوفاً، وعزّهم ذُلاً، وكثرتهم قلّة، فتبارك الله ربّ العالمين الفعّال لما يشاء[1].

ذكر دخول التتر ديار بكر والجزيرة وما فعلوه في البلاد من الفساد

لمّا انهزم جلال الدّين من التتر على آمِد نهب التتر سواد آمِد، وأرزَن، وميّافارقين، وقصدوا مدينة أسْعَرد، فقاتلهم أهلها، فبذل لهم التتر الأمان، فوثقوا منهم واستسلموا، فلمّا تمكّن التتر منهم وضعوا فيهم السيف وقتلوهم حتّى كادوا يأتون عليهم، فلم يسلم منهم إلاّ مَن اختفى؛ وقليل ما هم.

حكى لي بعض التّجّار، وكان قد وصل آمِد، أنّهم حزروا[2] القتلى ما يزيد على خمسة عشر ألف قتيل، وكان مع هذا التّاجر جارية من أسْعَرد، فذكرت أنّ سيّدها خرج ليقاتل، وكان له أمّ، فمنعته، ولم يكن لها ولد سواه، فلم يُصْغ إلى قولها، فمشت معه، فقُتلا جميعاً، وورثها ابن أخ للأمّ فباعها من هذا التاجر، وذكرت من كثرة القتلى أمراً عظيماً، وأنّ مدّة الحصار كانت خمسة أيّام.

ثمّ ساروا منها إلى مدينة طَنْزَة ففعلوا فيها كذلك، وساروا من طَنْزَة إلى وادٍ بالقرب من طَنْزَة يقال له وادي القُريشيّة، فيه مياهٌ جارية، وبساتين كثيرة، والطريق إليه ضيّق، فقاتلهم أهل القُريشيّة فمنعوهم عنه، وامتنعوا عليهم، وقُتل بينهم كثير، فعاد التتر ولم يبلغوا منهم غرضاً، وساروا في البلاد لا مانع يمنعهم، ولا أحد يقف بين أيديهم، فوصلوا إلى ماردين فنهبوا ما وجدوا من بلدها، واحتمى صاحب ماردين وأهل دُنَيْسر بقلعة ماردين، وغيرهم ممّن جاور القلعة احتمى بها أيضاً.

ثمّ وصلوا إلى نَصِيبين الجزيرة، فأقاموا عليها بعض نهار، ونهبوا سوادها وقتلوا

---

(١) أنظر خبر انهزام جلال الدين في: سيرة جلال الدين ١٨٤، وأخبار الزمان ٢٧٧، ٢٧٨، ومفرّج الكروب ٣١٤/٤ ـ ٣١٨، وأخبار الأيوبيين ١٣٩، والمختصر في أخبار البشر ١٤٧/٣، ونهاية الأرب ٢٨٩/٢٧، ٢٩٠ و٢٩٥ ـ ٢٩٧، والدرّ المطلوب ٣٠٢، وتاريخ الإسلام (٦٢٨هـ.)، والعبر ١١٠/٥، ودول الإسلام ١٣٤/٢ (باختصار شديد)، وتاريخ ابن الوردي ١٥٣/٢، ومرآة الجنان ٦٥/٤، والبداية والنهاية ١٢٨/١٣، والعسجد المسبوك ٤٤٣/٢، وتاريخ الخميس ٤١٤/٢، وتاريخ ابن سباط ٣٠٠/١، ٣٠١.

(٢) في الأوربية: «حرزوا».

مَن ظفروا به، وغُلقَت أبوابها، فعادوا عنها، ومضوا إلى بلد سِنجار، ووصلوا إلى الجبال من أعمال سِنجار، فنهبوها ودخلوا إلى الخابور، فوصلوا إلى عرابان، فنهبوا، وقتلوا، وعادوا.

ومضى طائفة منهم على طريق المَوصِل، فوصل القوم إلى قرية تسمّى المؤنسة، وهي على مرحلة من نَصِيبين، بينها وبينَ المَوصِل، فنهبوها واحتمى أهلها وغيرهم بخان فيها، فقتلوا كلّ من فيه.

وحُكي لي عن رجل منهم أنّه قال: اختفيت منهم ببيت فيه تبن، فلم يظفروا بي، وكنتُ أراهم من نافذة في البيت، فكانوا إذا أرادوا قتل إنسان، فيقول: لا بالله، فيقتلونه، فلمّا فرغوا من القرية، ونهبوا ما فيها، وسبوا الحريم، رأيتهم وهم يلعبون على الخيل، ويضحكون، ويُغنّون بلغتهم بقول: لا بالله.

ومضى طائفة منهم إلى نَصِيبين الروم، وهي على الفرات، وهي من أعمال آمِد، فنهبوها، وقتلوا فيها، ثمّ عادوا إلى آمِد، ثمّ إلى بلد بَدْليس، فتحصّن أهلها بالقلعة وبالجبال، فقتلوا فيها يسيراً، وأحرقوا المدينة.

وحكى إنسان من أهلها قال: لو كان عندنا خمس مائة فارس لم يسلم من التتر أحدٌ لأنّ الطريق ضيّق بين الجبال، والقليل يقدر على منع الكثير.

ثمّ ساروا من بَدْليس إلى خِلاط، فحصروا مدينة من أعمال خِلاط يُقال لها: باكرى، وهي من أحصن البلاد، فملكوها عَنوةً، وقتلوا كلّ من بها، وقصدوا مدينة أرجِيش من أعمال خِلاط، وهي مدينة كبيرة عظيمة، ففعلوا كذلك، وكان هذا في ذي الحجّة.

ولقد حُكي لي عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذي ألقى الله سبحانه وتعالى في قلوب الناس منهم، حتّى قيل إنّ الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس، فلا يزال يقتلهم واحداً بعد واحد، لا يتجاسر أحد [أن] يمدّ يده إلى ذلك الفارس.

ولقد بلغني أنّ إنساناً منهم أخذ رجلاً، ولم يكن مع التتريّ ما يقتله به، فقال له: ضَعْ رأسك على الأرض ولا تبرح؛ فوضع رأسه على الأرض، ومضى التتريّ فأحضر سيفاً وقتله به.

وحكى لي رجل قال: كنتُ أنا ومعي سبعة عشر رجلاً في طريق، فجاءنا فارس

من التتر وقال لنا حتّى يكتّف بعضنا بعضاً، فشرع أصحابي يفعلون ما أمرهم، فقلت لهم: هذا واحد فلِمَ لا نقتله ونهرب؟ فقالوا: نخاف. فقلتُ: هذا يريد قتلكم الساعة، فنحن نقتله، فلعلّ الله يخلّصنا؛ فوالله ما جسر أحد [أن] يفعل، فأخذتُ سكّيناً وقتلتُه وهربنا فنجونا، وأمثال هذا كثير[1].

ذكر وصول طائفة من التتر إلى إرْبل ودَقوقا

في هذه السنة، في ذي الحجّة، وصل طائفة من التتر من أذْرَبِيجان إلى أعمال إرْبِل، فقتلوا مَن على طريقهم من التركمان الإيوانيّة والأكراد الجوزقان[2] وغيرهم إلى أن دخلوا بلد إرْبِل، فنهبوا القرى، وقتلوا من ظفروا به من أهل تلك الأعمال، وعملوا الأعمال الشنيعة التي لم يُسمع بمثلها من غيرهم.

وبرز مظفّر الدّين، صاحب إرْبِل، في عساكره، واستمدّ عساكر الموصِل فساروا إليه، فلمّا بلغه عَود التتر إلى أذْرَبِيجان أقام في بلاده [ولم يتبعهم][3]، فوصلوا إلى بلد الكرخيني[4]، وبلد دَقوقا، وغير ذلك، وعادوا سالمين لم يذعرهم أحدٌ، ولا وقف في وجوههم فارس[5].

وهذه مصائب وحوادث لم ير الناس من قديم الزمان وحديثه ما يقاربها، فالله سبحانه وتعالى يلطف بالمسلمين، ويرحمهم، ويردّ هذا العدوّ عنهم، وخرجت هذه السنة ولم نتحقّق لجلال الدين خبراً، ولا نعلم هل قُتل، أو اختفى، لم يُظهر نفسه خوفاً من التتر، أو فارق البلاد إلى غيرها، والله أعلم.

ذكر طاعة أهل أذْرَبِيجان التتر

في أواخر هذه السنة أطاع أهل بلاد أذْرَبِيجان جميعها للتتر، وحملوا إليهم الأموال والثياب الخطائيّ، والخويّيّ، والعتابيّ، وغير ذلك، وسبب طاعتهم أنّ جلال الدّين لمّا انهزم على آمِد من التتر، وتفرّقت عساكره، وتمزّقوا كلّ ممزَّق، وتخطّفهم الناس، وفعل التتر بديار بكر، والجزيرة، وإرْبِل، وخِلاط ما فعلوا، ولم يمنعهم

---

(١) مفرّج الكروب ٤/ ٣٢٥ ـ ٣٢٨، العسجد المسبوك ٢/ ٤٤٥ (باختصار).
(٢) في الأوربية: «الخوزقان».
(٣) من النسخة رقم ٧٤٠.
(٤) في النسخة رقم ٧٤٠ «الكرحسي»، و«الكرجيني».
(٥) مفرّج الكروب ٤/ ٣٢٨، العسجد المسبوك ٢/ ٤٤٥ باختصار.

أحد، ولا وقف في وجوههم واقف، وملوك الإسلام منجحرون في الأثقاب، وانضاف إلى هذا انقطاع أخبار جلال الدّين، فإنّه لم يظهر له خبر، ولا علموا له حالة، سُقط في أيديهم، وأذعنوا للتتر بالطاعة، وحملوا إليهم ما طلبوا منهم من الأموال والثياب.

من ذلك مدينة تِبريز التي هي أصل بلاد أذْرَبِيجان، ومَرجِع الجميع إليها وإلى مَن بها، فإنّ ملكَ التتر نزل في عساكره بالقرب منها، وأرسل إلى أهلها يدعوهم إلى طاعته، ويتهدّدهم إن امتنعوا عليه، فأرسلوا إليه المال الكثير، والتُّحف من أنواع الثياب الإبريسَم وغيرها، وكلّ شيء حتّى الخمر، وبذلوا له الطاعة، فأعاد الجواب يشكرهم، ويطلب منهم أن يحضر مقدّموهم عنده، فقصده قاضي البلد ورئيسه، وجماعة من أعيان أهله، وتخلّف عنهم شمس الدّين الطُّغْرائيّ، وهو الذي يرجع الجميع إليه، إلاّ أنّه لا يُظهر شيئاً من ذلك.

فلمّا حضروا عنده سألهم عن امتناع الطُّغْرائيّ من الحضور فقالوا: إنّه رجل منقطع، ما له بالملوك تعلُّق، ونحن الأصل؛ فسكت ثمّ طلب أن يحضروا عنده من صنّاع الثياب الخطائيّ وغيرها، ليُستعمل لملكهم الأعظم، فإنّ هذا هو من أتباع ذلك الملك، فأحضروا الصنّاع، فاستعملهم في الذي أرادوا، ووزن أهل تِبريز الثمن، وطلب منهم خَركاة[1] لملكِه أيضاً، فعملوا له خَركاة لم يُعمل مِثلها، وعملوا غشاءها من الأطلس الجيّد المزركش، وعملوا من داخلها السّمّور والقُنْدُز، فجاءت عليهم بجملة كثيرة، وقرّر عليهم شيئاً من المال كلّ سنة[2]، وتردّدت رُسُلهم إلى ديوان الخلافة وإلى جماعة من الملوك يطلبون منهم أنّهم لا ينصرون خُوارزم شاه.

ولقد وقفتُ على كتاب وصل من تاجر من أهل الرَّيّ في العام الماضي، قبل خروج التتر، فلمّا وصل التتر إلى الرَّيّ وأطاعهم أهلها، وساروا إلى أذْرَبِيجان، سار هو معهم إلى تِبريز، فكتب إلى أصحابه بالمَوصِل يقول: إنّ الكافر، لعنه الله، ما نقدر [أن] نَصِفَه، ولا نذكر جموعه حتّى لا تنقطع قلوب المسلمين، فإنّ الأمر عظيم، ولا تظنّوا[3] أنّ هذه الطائفة التي وصلت إلى نَصِيبين والخابور، والطائفة الأخرى التي وصلت إلى إرْبِل ودَقُوقا، كان قصدهم النهب، إنّما أرادوا أن يعلموا هل في البلاد مَن

---

(١) الخركاة: الخيمة الكبيرة، أو السُّرادق.

(٢) مفرّج الكروب ٣٢٩/٤، ٣٣٠، البداية والنهاية ١٢٩/١٣، العسجد المسبوك ٤٤٥/٢.

(٣) في الأوربية: «تظنون».

يردّهم أم لا، فلمّا عادوا أخبروا ملكهم بخلّو البلاد من مانع ومُدافع، وأنّ البلاد خالية من ملك وعساكر، فقوي[1] طمعهم، وهم في الربيع يقصدونكم، وما يبقى عندكم مقام، إلاّ إن كان في بلد الغرب، فإنّ عزمهم على قصد البلاد جميعها، فانظروا لأنفسكم.

هذا مضمون الكتاب، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

وأمّا جلال الدّين فإلى آخر سنة ثمانٍ وعشرين [وستّمائة] لم يظهر له خبر، وكذلك إلى سَلْخ صفَر سنة تسعٍ لم نقف له على حال، والله المستعان.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة قلّت الأمطار بديار الجزيرة والشام، ولا سيّما حلب وأعمالها فإنّها كانت قليلة بالمرّة، وغلت الأسعار بالبلاد، وكان أشدّها غلاء حلب، إلاّ أنّه لم يكن بالشديد مثل ما تقدّم في السنين الماضية، فأخرج أتابك شهاب الدّين، وهو والي الأمر بحلب، والمرجع إلى أمره ونهيه، وهو المدبّر لدولة سلطانها الملك العزيز ابن الملك الظاهر، والمربّي له، من المال والغلاّت كثيراً، وتصدّق صدقات دارّة، وساس البلاد سياسة حسنة بحيث لم يظهر للغلاء أثر، فجزاه الله خيراً[2].

وفيها بنى أسد الدين شِيركوه، صاحب حمص والرحبة، قلعة عند سَلَمِيّة، وسمّاها شُمَيمِس، وكان الملك الكامل لمّا خرج من مصر إلى الشام قد خدمه أسد الدّين، ونصح له، وله أثر عظيمٌ في طاعتهِ والمقاتلة بين يديه، فأقطعه مدينة سَلَمِيّة، فبنى هذه القلعة بالقرب من سَلَمِيّة، وهي على تلّ عالٍ.

وفيها قصد الفرنج الذين بالشام مدينة جَبلة، وهي بين جملة المدن المضافة إلى حلب، ودخلوا إليها، وأخذوا منها غنيمة وأسرى، فسيّر أتابك شهاب الدّين إليهم العساكر مع أمير كان أقطعها، فقاتل الفرنج، وقتل منهم كثيراً، واستردّ الأسرى والغنيمة.

[الوَفَيَات]

وفيها تُوفّي القاضي ابن غنائم[3] بن العديم الحلبيّ، الشيخ الصالح، وكان من المجتهدين في العبادة والرياضة والعاملين بعلمه، فلو قال قائل: إنّه لم يكن في زمانه

---

(١) في الأوربية: «قوي».

(٢) زبدة الحلب ٣/ ٢١٠، وانظر: البداية والنهاية ١٣/ ١٢٨.

(٣) في البداية والنهاية ١٣/ ١٣٠ «أبو غانم».

أعبد منه، لكان صادقاً، فرضي الله عنه وأرضاه، فإنّه من جملة شيوخنا، سمعنا عليه الحديث، وانتفعنا برؤيته وكلامه.

وفيها أيضاً في الثاني عشر من ربيع الأوّل تُوفّي صديقنا أبو القاسم عبد المجيد بن العجميّ[1] الحلبيّ، وهو وأهل بيته مقدّمو السُّنّة بحلب، وكان رجلاً ذا مُروءة غزيرة، وخُلق حسن، وحلم وافر، ورئاسة كثيرة، يحبّ إطعام الطعام، وأحبّ الناس إليه من يأكل طعامه، ويقبل برّه؛ وكان يلقى أضيافه بوجه منبسط ولا يقعد عن إيصال راحة، وقضاء حاجة، فرحمه الله رحمة واسعة.

---

(١) أنظر عن (عبد المجيد بن العجميّ) في: البداية والنهاية ١٣/ ١٣٠.